يا ايها الناس قد جاءكم برهان من ربكم وانزلنا اليكم نورا مبينا

احاط الناس من طغوى ظلام | علامات بها عرف الامام
فلا تعجب بما جئنا بنور | بدت عين اذا اشتد الاوام

بشرى لطلبة النور ان هذا المكتوب من الامام المغفور

اسمه ككاتبه

لجة النور

الى علماء

العرب والشام والبغداد والعراق والخراسان

لتجري انهار الايقان والعرفان في زروع الايمان

وقد اتفق لطبعه في مطبع ضياء الاسلام واشاعته من البدر في القاديان

بيد الخادم الفقير مهدي حسين مهتمم دار الكتب للمسيح الموعود في قاديان دار الامان

في شهر محرم الحرام ١٣٢٨ من الهجرة | بعهد خليفة المسيح نور الدين زهيري | عدد الاشاعة (٢١٠٠) + ثمن نسخة واحدة ٣

یہ رسالہ مطبع ضیاء الاسلام قادیان میں حکیم فضل الدین کے اہتمام سے طبع ہوا تھا۔ ٹائٹل پیج مطبع بدر قادیان میں مفتی محمد صادق کے اہتمام سے طبع ہوا بماہ جنوری سنہ ۱۹۱۰ء

صورة غلاف الطبعة الأولى لهذا الكتاب

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ربّ الأرضين والسماوات العُلى، وسلام على عباده الذين اصطفى. أما بعد.. فهذا مكتوب مِن مَظهَرِ البُروزَيْن*، ووارثِ النبيَّـــيْنِ⊙، عبدِ الله الأحد أبي المحمود أحمدَ، عافاه الله وأيّد، إلى عباد الله المتّقين الصالحين العالمين، من العرب وفارس وبلاد الشام وأرض الروم وغيرها من بلاد توجد فيها علماء الإسلام، الذين إذا جاءهم الحق، وعُرض عليهم المعارفُ الإلهيّة والبشارات السماوية بسلطانها وقوّتها ولمعانها، اختضعتْ لقبولها قلوبُهم، وحفَدوا إليها مطيعين مؤمنين، ولا يمرّون عليها معرضين مستكبرين. وإذا بلغهم خبرٌ من رجل وأثرٌ من عبد بعثه الله لتجديد الدين وتأييده، تراءتْ نضارة الفرح على وجوههم، ويسعى النور في جباههم، وحمدوا الله وشكروا له على ما رحم ضعفاء الإسلام، وقاموا مستبشِرين وخرّوا ساجدين. وترى أعينهم تفيض من الدمع بما رأوا رحمة الحق، ووجدوا أيام الله وبما كانوا أنفدوا الأعمار منتظرين، ويشدّون

* الحاشية: قد جرتْ عادةُ أكثرِ علماء الإسلام أنهم يــسمّون البُــروز قَــدمًا، ويقولون مثلا إن هذا الرجل على قدم موسى وذلك على قدم إبراهيم. منه

⊙ *ورد في الترجمة الفارسية لهذا الكتاب أن هذين النبيّين هما عيسى وسيدنا محمد عليهما الصلاة والسلام. (اللجنة)*

الرحال للقاء ذلك العبد المبعوث بعدما عرفوا الحق، ويخلصون النيّاتِ ويطهِّرون الضمائر ويجرّدون القصد والهمّة له، ويسعون إليه وإن كان في الصين. ولا يكونون كالذي أساء الأدب على أهل الله، وإذا سمع قولاً منهم مُحدَثًا في زعمه ما صبر طرفةَ عين واستعجل وبلّغ ظنون السوء إلى منتهاها، وصال معاديًا وسبّ وشتم وافترى، وكفّر وآذى وأغرى القومَ وحَضا، وما وجد سهمًا إلا رمى، وما ظفِر بكيد إلا أَسْدى، وقصَد عِرْضَ رجال الله ونَفْسَهم وما خاف يومًا فيه يؤخذ ويُجزى، وصار أوّلَ المنكرين. بل يتأدّبون مع الله وأهله، ويصبرون حتى يتجلّى لهم وجه الحقّ، فيرحمهم الله بسيرتهم هذه، ولا يفوتهم خير ولا يكونون من المحرومين. وتلك قوم ما يعلمهم إلا الله ولا أعلمُ أسماءهم وصُورهم، بيد أني رأيتُ في مبشِّرة أُرِيتُها جماعةً من المؤمنين المخلصين والملوك العادلين الصالحين، بعضهم من هذا المُلك، وبعضهم من العرب، وبعضهم من فارس، وبعضهم من بلاد الشام، وبعضهم من أرض الروم، وبعضهم من بلاد لا أعرفها، ثم قيل لي من حضرة الغيب إن هؤلاء يصدّقونك ويؤمنون بك، ويصلّون عليك ويدْعون لك، وأعطي لك بركات حتى يتبرّك الملوك بثيابك، وأُدخِلهم في المخلصين. هذا رأيتُ في المنام وأُلهمت من الله العلام. ثم بعد ذلك أُلقيَ في رُوعي أن أؤلّف لهم

كُتبًا وأكتب فيها كل ما فُتِحَ عليّ مِن خالقي، وأعلّمهم كلّ ما عُلّمتُ من الحقائق الصادقة والمعارف العالية المطهرة، وأُعثِرَ عليهم ممّا رزقني ربي من آيات ظاهرة، وخوارق باهرة، ودلائل موصلة إلى علم اليقين، لعلّهم يعرفونني، ولعلهم يكونون أنصاري في سُبل رب العالمين.

فاعلموا أيها الأعزّة، رحمكم الله، أن هذا الكتاب من كتبي التي ألّفتها لهذا المقصد، وإني أُهدِيه إلى سادات العرب والشام، وأبلّغ ما عليّ من ربي ذي الجلال والإكرام، لينال السعداءُ مُرادهم وليتمّ الحجّة على المعرضين. وسألتُ الله أن يجعله مباركًا لطوائف المسلمين، ويجعل أفئدةً من الناس تهوي إليه، ويجعل منه حظًّا كثيرًا لعباده الصالحين، وإنه على كل شيء قدير، وإنه أرحم الراحمين. وأرجو من أصحاب القلوب ورجال البصيرة أن لا يعجَلوا عليّ كما عجِل بعض سكّان هذه البلاد، من البخل والعناد، فإن العجلة على أهل الله والذين أُمِروا من حضرته ليس بخير، ولا يُعقِب إلا ضيرًا، ولا يزيد إلا غضب الله في الدنيا وفي يوم الدين. ولا يرى المستعجل سبلَ الصدق والسَّداد، ولا يعزُّ في هذه ولا في المعاد، ويموت مُهانًا وهو من العَمِين. وإن لحوم الأولياء مسمومة، فما أكلها أحد بغِيبتهم وسَبِّهم إلا مات على مكانه، وبُشرى للمجتنبين المتّقين.

وإني رتّبت هذا الكتاب على أبواب، لئلا يشقّ على طلاب، ومع ذلك سلكْنا مسلكَ الوسط ليس بإيجازٍ مخلّ، ولا إطنابٍ مملّ. رَبِّ اجعلْه كتابا مباركا شافيا لصدور الطالبين، ونورًا منوِّرًا لقلوب المتدبرين. آمين.

الباب الأوّل

في ذكرِ أحوالي وذكر ما ألهمَني ربي، وذكرِ وقتي وزماني وما أراد الله بإرسالي، وذكرِ تفرقة الأمم والمِلَل والنِّحَل، وضرورةِ حكَمٍ من الله الحكيم الوالي.

يا عباد الله، رحمكم الله، اعلموا أني عبد من عباد الله الملهَمين المأمورين. بعثني ربي لأُقيم الشريعة وأُحيي الدين، وأُتمّ الحجّة على المنكرين. وأنا المسمّى من الله بأحمدَ مع أسماءِ أخرى ذكرتُها في مواضعها، واسم أبي ميرزا غلام مرتضى، وأبوه ميرزا عطا محمد، وميرزا عطا محمد ابن ميرزا گل محمد، وميرزا گل محمد ابن ميرزا فيض محمد، وميرزا فيض محمد ابن ميرزا محمد قائم، وميرزا محمد قائم ابن ميرزا محمد أسلم، وميرزا محمد أسلم ابن ميرزا محمد دلاور، وميرزا محمد دلاور ابن ميرزا إله دين، وميرزا إله دين ابن ميرزا

جعفر بيك، وميرزا جعفر بيك ابن ميرزا محمد بيك، وميرزا محمد بيك ابن ميرزا عبد الباقي، وميرزا عبد الباقي ابن ميرزا محمد سلطان، وميرزا محمد سلطان ابن ميرزا عبد الهادي بيك.

وبعد هذا لا أعلم أسماء آبائي المتقدمين. ولكني قرأت في بعض كتب فيها تذكرةُ آبائي أنهم كانوا من سمرقند، وكانوا من بيت السلطنة والإمارة، ثم صُبّت عليهم المصائب فظعنوا عن بلدة دارهم وإِلْفِهم وجارِهم، حتى وصلوا إلى هذه الديار، وأناخوا بها مطايا التَسْيار، مع رِفقةٍ من خَدَمِهم وإخوانهم وأحبابهم وأعوانهم. ثم قصدوا أن يعتمروا مَلِكَ الهند "بابر"، ويسألوا عنه أن يُدخِلهم في أكابر، فوجدوا ما قصدوا من فضل الله الرحيم، وانتظموا في أمراء هذا المَلِكِ الكريم. ثم بدا لهم أن يتخذوا وطنهم هذه الديارَ، وأُعطوا قرى كثيرة من السلطنة المُغْلِيّة والأملاكَ والعَقارَ، ونسوا أيام الغربة والهموم والأفكار. وبينا هم في ذلك إذ قُلّبتْ أمورُ السلطنة المُغْلِيّة، وظهر الفساد في الثغور، وما قدَر الدولةُ أن تُحامِيَ عن الرعايا تطاوُلَ المفسدين والخُلْسةَ، وكثُر سفكُ الدماء وبَتْكُ الرقاب، ونهبُ الأموال وهتكُ الحجاب، واستصعبَ الانتظام، وزادت الكروب والآلام. فترَك الدولةُ المغلية هذا القدرَ من المملكة، وخُلِّصَ أعناقُ أمراء هذه الديار مِن رِبْقة الإطاعة، وصاروا كطوائف الملوك، غير تابعين لأحد

من دول، والمختارين في الحكومة. ففي تلك الأيام رجعتْ إلينا دولتُنا المفقودة إلى أيام، وكنّا نرمي عن قوس المِراح إلى غرض الأفراح بأمن وسلام، وعِشْنا عيشة السرور والراحة، ولبثنا على ذلك إلى مدّة أراد الله ذو الجلال والعزة. ثم طلع نجمُ إقبالِ مشركي الهند الذين سُمّوا بـــ "الخالصة"✦، فعصفتْ بنا ريحُ الحوادث في تلك الأيام، وقُلِعَ ما خيّمْنا بصراصرِ جَورِ هذه الأقوام، وصار الأمن محرّمًا كصيدِ حَرَمِ البيت الحرام، ونبَذْنا عُلَقَنا وعلاقتَنا بالاضطرار، وخلَسها "الخالصةُ" بقدر الله القهّار، فزَمَّ آباؤنا نُوقَ نفوسهم بزمام الاصطبار، وما كادوا يُعجَزون من المشركين في حروبهم ولكن القدر أعجزَهم، وكان في ذلك عبرة لأولي الأبصار. وكذلك صُبّت على آبائنا المصائب، وتواترت النوائب، حتى انتهى الأمر إلى أنهم عُطّلوا من إمارتهم وسياستهم، وأُخرجوا من دار رياستهم. فلبثوا في دار غربتهم إلى مدّة نحو ستين أعوام، حتى إذا ماتت الأعداء الذين وقعتْ بهم محاربات، وجهِل الناسُ حقيقةَ الواقع، رجعوا إلى الوطن متوارين مستورين، بما كانت "الخالصة" قوما ظالمين جاهلين.. يسفكون الدماء على أدنى عثار، و لم يكن أمنٌ مِن أيديهم لا في ليل ولا في نهار.

✦ *الخالصة هم طائفة السيخ. (اللجنة)*

وإذا انقضى عهد الدولة الخالصة، وجاء عهد الدولة الإنكلزية، نُجّينا من تلك المصيبة، ولم يبق إلا قصص من تلك الفئة الظالمة، وحُفظت بهذه الدولة العادلة أعراضُنا ودماؤنا وأموالنا، ونسينا كلَّ ما جرى علينا في الأيام الخالية. ولا شك أن هذه الدولة مباركة لمسلمي هذه الديار، وقد أعطتْ كلَّ ديانةٍ وملّةٍ حريّةً تامّة من غير الإكراه والإجبار، فنشكر الله ونشكر هذه الدولة، فإنا نُقلنا به إلى الجنة من النار.

بيد أن القسوس قد انتبذوا الحق ظِهْريًّا، ولم يأتوا فيما دوّنوه إلا أمرًا فَرِيًّا. وقد جمعتْ هممُهم على إعدام الإسلام، وقلعِ آثار سيّدِنا خيرِ الأنام. يدْعون الناسَ إلى اللظى والدَرك، ناصبين شَرَكَ الشِرْك. ويقولون إن المسيح ابن مريم جمَع في نفسه سِرَّ الناسوت واللاهوت◈، وإنْ هم إلا عُبّاد الطاغوت. والذين قبلوا دينهم من أهل الإسلام، وارتدّوا من ملّة سيدنا خير الآنام، فهم يوجدون في هذه البلاد في زهاء ثمانين ألفًا أو يزيدون، وهم يسبّون نبيَّنا ﷺ ويشتمون، ويكيدون ما يكيدون، ويريدون أن يهُدّوا بُرْجَ الإسلام

◈ قد أصرّوا على أنه صُلِبَ المسيحُ، ونجّى المؤمنين به هذا الذبيحُ. وقالوا إن الله لما أراد أن ينجّي الناس من جهنم، أنزل ابنَه وكلمتَه، وتجسّدَ اللاهوتُ، وتألّهَ الناسوتُ، وصُلب ولُعن، ودخل جهنم ابنُ الله ولبِث فيها إلى ثلاثة أيام ووزَر وازرةَ المجرمين. منه

ويهدموه، ويتسلّقوا فيه مفسدين ويُسلِموه. وإن القسوس قد خرجوا عن العدّ والإحصاء، وبلغوا عديدَ الحصى، وما بقي من بلدة ولا قرية إلا نُصِبتْ خيامهم فيها. ما وجدوا كيدًا إلا استعملوه، وما مكرًا إلا أظهروه، واستحرّتْ حربهم، وكثُر طعنهم وضربهم، وأروا مكائد لم يُر مثلها في الأولين، ولم يوجد نظيرها في العالمين. ورأى الله أن المسلمين لا يستطيعون أن يبارزوا أحزابهم، ورأى فيهم ضعفًا أصابهم، فرتَّب فضلاً مِن عنده في مقابلة هذه الأفواج الأرضية أفواجًا في السماء، وأنزلَ مسيحَه الموعود ليكسر صليب* الأعداء. وإن هذا الكسر ليس بسيف ولا سِنان، كما زعَمه فريق من عُميان، بل الكسر كله بدليل وبرهان، وآيات من السماء وسلطان. ولا يُستعمل سبب من أسباب الأرض ولا يؤخذ سلاح من أسلحة هذا العالم، وينـــزل الحق ليُعدِمَ الباطل بسلاح لا يراه الخَلق، وكان هذا مقدّرًا مِن بُدُوِّ الزمان، ومكتوبًا في كتب النبيين، ومَن خالفه فقد عصى وصايا المرسلين. ولا يأتي المسيح محاربًا بالأسنّة والسهام والمرهَفات، نعمْ، يأتي بعجائب الخوارق والآيات. ومن علاماته أن

---

* الحاشية: قد جاء في الأحاديث أن المسيح الموعود يكسر الصليب، ويُري في كسره الأعاجيب، وفهّمني ربي أن كسر المسيح ليس بالمحاربات، بل يضَع الحروبَ كلها ويكسر ما بُني على الصليب بالآيات. منه

تسمعوا عند وقت مجيئه أخبارَ المحاربات، ثم تسكُت الدول كلها ويميلون إلى المصالحات، ولا تبقى حرب في الأرض ولا غلبة الفتن والبدعات، وتميل النفوس إلى التقوى بعد كثرة المعاصي وظلمة شديدة على وجه الأرض وميل النفوس إلى السيئات. وإنكم ترون اليوم كيف تراءتْ عساكر الإلحاد، وظهرت رايات الفساد، وتجلّى على القلوب سريرُ إبليس، وأشاع أهلُه المكرَ والتلبيس، ونعَرتْ كُوساتُه، وصاحت من كل طرف بُوقاتُه، وجالت خيوله، وسالت سيوله، وترون بحور الفتن متموّجة، وآفاتِ الأرض في ظهورها متوالية، وكثُرتْ أحزاب الفاسقين، وقلّت جماعة المتقين. والذين قالوا إنا نحن على دين الله الإسلام، أماتَ قلوبَ أكثرِهم سمُّ الاجترام، فما بقي في أَكُفِّهم إلا اسم الدين وصاروا كالأنعام. واستبدلوا الخبيثاتِ بالذي هو من الطيبات، وغشّوا طبائعهم بغواشي الظلمات، وأعرضوا عن ذكر الله بتوجُّههم إلى العالم السفلي والشهوات. فلما أعرضوا عن جناب الحق ركدتْ نفوسهم، وانجذبتْ قريحتهم إلى الزخارف الدنيوية والمُقتنيات المادّية لمناسبتهم بالخبيثات، واشتدَّ حرصُهم ونَهْمتُهم وشغفُهم بها وألقاهم شُحُّ نفوسهم في السيئات، وتمايلوا على الدنيا وزخارفها الفانيات، وكلما استكثروا فيها، وازداد حرصهم عليها، وشُحُّهم بها، رجعوا خائبين

غير فائزين إلى المرادات. وما كانت عاقبةُ أمرهم إلا الضنك في المعيشة، وانتياب الأذى على المُهْجة. وما نفَعهم كذبُهم وكيدهم وصخبهم لدنياهم، واستأصل الله الراحةَ من قلوبهم، وأزال اضطجاع الأمن من جنوبهم، وتركهم في أنواع الغمّ والتشوشات، مع التغافل من الدين والضلالات، وما بقي لهم ذوق في المناجاة، ولا تلذُّذ في العبادات.

فحاصل الكلام أن الناس في زماننا هذا قد انقسموا إلى قسمين، ولحِق كلَّ قسم مرضٌ بقَدَرِ ربّ الكونَين. فالقسم الأول قوم النصارى، وتراهم للدنيا كالسكارى، وفي عبادة المخلوق كالأُسارى، والقسم الثاني المسلمون الذين يقولون إنّا نحن مؤمنون، وما بقي في أكثرهم حلاوةُ الدين والإيمان، ولا علمُ كتاب الله القرآن. وبعُدوا من أعمال البر وأفعال الرشد والصلاح، وانتقلوا من سبل الفلاح إلى طرق الطلاح. وعادَ جمرُهم رمادًا، وصلاحهم فسادًا. وركنوا إلى الدنيا الدنيّة، وركدوا بعد جريهم في أماكن الخير لإرضاء حضرة العزّة. وتركوا سِيَرًا إبراهيمية، واتبعوا سبلاً جحيمية، وصاروا لإبليس كالمقرَّنين في الأصفاد، والمقوَّدين في الأقياد. خرّبوا بأيديهم مساجدَ الله لترك الصلاة، ولم يبق في أعينهم جاهُ الأذان وعزّةُ الدُعاةِ لِما سمعوا صوتَ المؤذّنين ثم ما حفدوا إلى

المساجد للعبادات. يكذبون ولا يخافون، ويخانون ولا يتقون، ويقرُبون حرماتِ الله ولا يجتنبون، ويفسُقون ولا يمتنعون. مُلئت بطونهم من الحرام، وألسنُهم لُوّثتْ بأكاذيب الكلام، وتزني أعينهم ولا يخشون قهر الله العلاّم. وقد صاروا أعوانًا لأهل الكفر بسوء أعمالهم، وأرضَوا الشيطان بضلالهم. رُفعت من بينهم الأمانة، وضاعت الديانة، وما بقي من معصية إلا ارتكبوها، وما من جريمة إلا ركبوها. وتركوا القرآن وما دعا إليه، وتبعوا الشيطان وما أغرى عليه. وصاروا كاليهود قردة خاسئين، بعدما كانوا أُسودًا عادين. فلأجل ذلك ذاقوا الذلّة بعد العزّة، وضُربت عليهم المسكنة بعد أيام الدولة، وذلك جزاءُ قلوب مقفلة، وأَثامُ صدور مغلقة من رب العالمين.

يا حسرة على هؤلاء المسلمين! إنهم تركوا الدين لدنياهم، وآثروا هذه الدار على عقباهم، وأحبّوا الفساد، وعادَوا الصدق والسَّداد، ونسوا نموذج قوم افتتحوا بالشهادة بكمال الانقياد، وذبحوا نفوسهم بالمحبّة والوداد، الذين سقَوا بستانَ الملة بدمائهم، وهدموا بنيان وجودهم لإرضاء بَنّائهم. والذين تَلطّخوا بأدناس الدنيا ورُجْزِها وقذرها، أولئك قوم كثروا في هذا الزمان، وإنهم فقدوا تقواهم وأغضبوا مولاهم بأنواع العصيان. وترى كثيرًا منهم شغَفهم حبُّ

الأموال والأملاك والنسوان، وأقسى قلوبَهم لوعةُ الفضّة والعِقْيان، ودسّوا نفوسهم بهمومها بعدما جلّتْ مطلعَها نورُ الإسلام والإيمان. وإذا رأوا بعض أمور دنياهم غيرَ المنتظمِ أخَذهم الضجَرُ بالكَظْم، ولا يبالون دينَهم ولو يُهَدّ أركانه وتُهدَّم جدرانه. ويكرهون أن يُظهِروا على أبدانهم شِعار الإسلام، ويحبون أن يلبسوا لباس أهل الكفر وعَبَدة الأصنام. تركوا فريضة الصلاة وصيام رمضان، ولا يحضرون المساجد وإنْ سمعوا الأذان، بل يكره أكثرُ ذي مَخيلة أن يبرُزوا للتعييد، وما ترى فيهم مِن سُننِ العيد إلا لبس الجديد، وترى أكثرَهم اعتضدوا قِرْبةَ الملحدين، واستقادوا لِسِيَرِ الكافرين، وحسبوا أن الوُصلة إلى الدولة طرقُ الاحتيال والاختيال والإباحة، وأفتاهم فكرهم بأن الفوز في المكائد، فيستَقْرُونها ويرصُدون مواضعها كالصائد. ومنهم قوم يستَوْكِفون الأكُفَّ بالوعظ والنصيحة كالعلماء، ويطلبون الصيد بتقمُّص لباس الفقهاء، ويأمرون الناس بالبر وطريق الصلحاء، وينسَون أنفسهم ويحسبون هذا الطريق من الدهاء. لا ينقدون أمور الدين بعين المعقول، ولا يُمعِنون النظر في مباني الأصول، ولا يسلكون مسلك التحقيقات، وما تجدهم إلا كالعجماوات، بل هم كالجمادات. ويُظهِرون الحلم والرفق كأنهم هُذّبوا بأخلاق النبوّة والولاية، وإذا رأوا أن استعطافهم لا يُكدي

رجعوا إلى الإغلاظ والشكاية. يؤثِّمون الأبرار، ويكفِّرون الأخيار، ويفسِّقون الصلحاء الكبار، ويجهِّلون قومًا يكمِّلون الأنظار، مع أنهم كغمرٍ جاهل ما يعلمون ما الإسلام، ثم يضَعون مِن الذين أوتوا العلم، ويحسبون أنهم هم العلماء العظام. يَرُودون في مسارح لمحاتهم مَن يملأ وِفاضَهم بعد سماع كلماتهم، ويُضمِرون عند مسايحِ غدواتهم مَن يزيد عددَ دُريهماتهم. يخوّفون الناسَ بزواجرِ وعظهم، ولا يخافون الله بلفاظة لفظهم. يسُرّون أخلاطَ الزُمَر بإنشاد أشعار، ويبوحون إليهم عند خاتمة الوعظ بحاجات وأوطار، ليفرّجوا غُمّتهم بدرهم ودينار. ويدلِفون إلى الأمراء، ويُظهِرون عليهم أنهم من أكابر العلماء، وأسبغَ الله عليهم من علم الحديث والقرآن، والناسُ يَستَكْفُون بهم الافتنانَ بمكائدِ عَبَدة الصلبان، ثم يشيرون إلى أنهم من حُماة الملة ومِن الذين بذلوا مالهم وهمّتهم في سبل الدين لرضا الحضرة، وما بقِي لهم شغل إلا الوعظ ليؤدّوا فريضتهم، وليهدوا الناس وليرْووا غُلّتهم، وليس مِن سيرتهم ليُخلِقوا لكل أحدٍ ديباجتَهم، ويرفعوا إليه حاجتهم. فالحاصل أنهم يقولون كذا وكذا مكرًا وحيلةً، وقد يتفق أن رئيسًا يرسُم لهم وظيفةً، أو يعطي لهم صلةً، لِما وجدهم كالسائلين الباكين. فلا شك أن هذه العلماء قد انتهوا في غلوائهم، وسدروا في خيلائهم، وأصرّوا على جهلاتهم،

ولوّنوا الناس بألوان خزعبيلاتهم، وقد جاوز الحدَّ غيُّهم، وأهلك الناسَ بغيُهم. إذا وعدوا أخلفوا، وإذا غضبوا أغلظوا، وإذا حدّثوا كذبوا. ونشَر نموذجَ السوء زَهْوُهم، وأضرَّ الحقَّ لَهْوُهم، وأقسى قلوبَ الناس سوءُ أعمالهم وقبحُ سيرتهم، بعدما عثروا على سريرتهم. يجترئون على السيئات بعزم صميم، كأنهم ليسوا بمَرْأى رقيبٍ عليم. زلّتْ أقدامُهم، وأوبقَ الناسَ أقلامُهم، وتغيّرَ حالُهم، وكدِر زلالُهم. ما يأخذهم ندمٌ مع كثرة الذنوب، ويرصُدون المزرعة مع عدمِ زرع الحبوب. لا ينتهجون مهجّة الاهتداء، ولا يعطفون على أحدٍ إلا بطريق الرياء. قد كان فيما مرّ من الزمان أهواء كأهوائهم، ولكن ما خلا قوم من قبل في شباءة اعتدائهم. يوقظهم الله فيتناعسون، ويجذبهم الحق فيتقاعسون. جمعوا التعصّب بأنواع غرارة، ولا يسمعون الحق كأنهم في مغارة، ولا يوجد فيهم شيء من بصيرة ولا بصارة. قد هجم الشيطان عليهم مُواريًا عنهم عِيانَه، فانساب في عروقهم وشرايينهم وأغرى عليهم أعوانَه. لا يستطيعون أن يسمعوا كلمة الحقّ، فيثِبون وَثْبَ البَقِّ، ويزفِرون زفرةَ القيظ، ويُخاف أن يتميزوا من الغيظ. ويُحَمْلِقون إلى من قال قولاً يخالف آراءهم، ولو كان يواخي آباءهم. ترى هِمَمَهم عاليةً للدنيا الدنيّة، وترى احتدادَ بصرهم في الأفكار السفليّة، وأما في أمر حماية الدين فقد خبتْ

نارهم، وتَوارى أُوارُهم. يوافون الأمراءَ بالمداهنة، ويقعدون قُبالتَهم على لحم مشوي وخبز سميذ للمؤاكلة، ولو كان من أهل البدعات والمعصية، ولا يخرج من أفواههم كلمةٌ تخالف آراء هذه الفئة، ويخالطونهم كالماء والراح بكمال الفرحة، ويمدّون أيديهم فرحين للمصافحة. فالحاصل أنهم يُرضُون أهل الدولة والحكومة بلطائف الاحتيال، ويسجدون لكل مَن ملَك أمرًا ويتركون طريق الجدال. وأما الغرباء الضعفاء فيُداسون تحت أقدامهم، ويُكفَّرون بأقلامهم. ولا يرون كُفْرَ مَن يُجلَب منه ما يُقتنى، أو يُستَدْفَعُ به الأذى، فلا يسألون من ذا؟ ويقولون يا سيدي أنت فُقتَ غيرك بمحامد لا تُحصَى، ويستَقْرُون للقائه الطرقَ، ويستفتحون الغُلَقَ، ولا يبرحون مكانَه حتى يروا عِيانَه، وإذا لقوا سلّموا راكعين، وكلّموا خاشعين. أولئك هم علماء السوء، وأولئك هم الملعونون على لسان خاتم النبيين. يريدون عَرَضَ الدنيا ولا يريدون الآخرة، وآثروا الحياة الدنيا واستيأسوا من يوم الدين.

فالحاصل أنهم قوم يختارون كل طريقة يرشَح بها إناء، ويحضرون كل أرض يخرج منها ماء، ويصيدون الخَلق ببكاءٍ ونحيبٍ، في نادٍ رحيب، ويزيد صِفْرُ راحتِهم رَنّةَ نِياحتِهم. وما كان مجلبة الدمع، إلا الشحّ الذي أذابهم كالشمع. وكذلك ينفدون أعمارهم في فكر هذه

العيشة، وأنساهم الشيطان فكر الآخرة. أينما وجدوا قَنَصًا نصبوا شَرَكَ الوعظ والنصيحة، ويمشون على مساق واحد أضمروه في النية، وليس هو إلا جمع الأموال وإشباع العيال بالمكر والخديعة. ويستَقْرُون الباكين والمرحِّبين في مجالسهم لِيُنـــزلوهم منـــزلَ القَبَسِ والذُبالة، وإنْ أعطاهم بَغِيٌّ مالاً، وعرضتْ عليهم حرامًا لا حلالاً، فيتسلّمون ولا يتكلّمون لحرصهم على تلك الجيفة. وترى أبناءهم يقتصّون مَدرَجَهم ويقرأون مُدرَجَهم. تشابهت قلوبهم بآبائهم الضالين، إلا قليل من عباد الله الصالحين. ما دانتْهم تقوى القلوب، واستعادَ الله علومَهم فما بقي في صدورهم إلا ظلمات الذنوب.

ومنهم قوم لا يدْرون الفقر ولا يستطلعون طِلْعَ مقامِ الولاية، ومع ذلك خالَجَ قلبَهم أنهم أهل الله وعلى الهداية. وترى أكثرهم يخبطون في أساليب الفقر والطريقة، وما أمرُهم إلا التخليط وخلط البدعات بالشريعة. وليس في أيديهم إلا الانتساب بسلاسل الأسلاف، وما هو إلا كسلاسل بعين الإنصاف. قد خطَف الشيطان نورَ صدورهم وأودعَها الكبرَ والعُجْب والرياء، وزيّن أعمالَهم في أعينهم فآثروا الرعونة والخيلاء. يهُشّون لرجوع الناس إليهم، ويبتهجون بمدح الجالسين لديهم، ويحبّون أن يُحمَدوا بما لم يفعلوا، وأن لا يسمّى ذنبهم ذنبًا وإنْ أجرموا. فهذا هو الذي دعاهم إلى التعامي، ومنَعهم

من قبول الحق وأضلّهم في المَوامي. يُوغِلون في مقاصد الدنيا الدنيّة، ويسقُطون عند مهمّات الدين كالميّت. ما ينهَضون لأوامرَ أُمروا بها بنشاط الخواطر، ويقومون لنفسهم الأمّارة كالكميش الشاطر. يتلقّفون ما وافقَ هوى النفوس، ولو مِن أيدي القسوس، ولا يقبَلون ما كان يخالف حُكْمَ أهوائهم، ولو كان من آبائهم. لا يعلمون شيئا من الحقيقة والمعرفة، وجمعوا في أقوالهم وأعمالهم أنواع البدعة.

وأمّا عامة الناس من المسلمين، فقد تبع أكثرُهم الشياطينَ. وترى أحداثَهم وشيوخهم منهمكين في السيئات، وترى بَلْبالَهم لدُنياهم وللبنين والبنات. يميلون عن الحق عند الخصام والمِراء، ويحضرون المحاكماتِ لغصبِ حقوق الشركاء. يريدون أن يدُعّوا الإخوان ويستخلصوا لنفوسهم حقوقَ الإرث، ولا يذكرون يوم الجزاء لا على وجه الجِدّ ولا العبثِ. ويعريهم اكتئاب واضطراب لفوتِ شيء من هذه الدار، ولا يتهيّج أسفُهم على فوت الدين كله كالكُفّار. يموتون للدنيا ولا يخبو ضَجَرُهم ولا ينصُل كَمَدُهم، ولا يَجمُون ليومٍ يغضب فيه مولاهم وصَمَدُهم. ضلّ سعيهم في الحياة الدنيا، وما بقي لهم به مِن حسٍّ وماتت قلوبهم، فلا يُفيقون من هذه الغَشْية، وأوردوا أنفسَهم موردَ سخطِ الله ثم لا يتركون مَسرَى الفَجَرة. لا يَسْرُون إلا المسرى الذي يخالف طرق الورع، ولو نُدِّدَ بأنه من

مناهي الشرع. يحسبون بَوْلَ إبليس مُزْنةً، ورَوْثَ النَّعَم نعمةً. بلغ الزمان إلى الانقطاع، وما انقطعت مادّةُ زيغهم الذي دخلتْهم من الرضاع. أَصْبَتْهم الذمائم، مُذْ مِيطتْ عنهم التمائم، واستسنَوْا زينةَ الدنيا وقيمتَها، وحسبوا جَهامها صَيِّبًا واستَغْزَروا دِيمتَها، واستأنسوا بجَمالها، وولِعوا ببغالها وجِمالها، وخدَعهم حلاوةُ عشرتِها، وتحمُّلُ قشرتِها، وطراوةُ بُسْرتها، وتألُّقُ بَشرتها، وما أمعنوا النظر في توسُّمها، وما سرّحوا الطرف في ميسمها، وهنَّأوا نفوسهم بالزُور، وابتدروا استلامَ يدِ المَكّار الغَرور. جهلوا جُدرانَها المتهافتة برؤية شِيدِها، وخُلِبوا بعماراتها وما تَذكّروا قصصَ حصيدها. وإن إيمانهم أحالَ صفاتِه الأولى، وغاب روحُه وما بقي إلا الهَيُولى. وبدعاتُ علمائهم غيّرتْ صورة الإسلام، وأَرَتْه كأرنبٍ مع كونه كالضِرْغام، فترى اليوم بَرْقَه خُلّبًا، والدهرَ به قُلّبًا، وكلٌّ من الأقران يريد أن يبلَعه، ويقصد كلُّ عدوّ أن يقلَعه. العلوم الطبعية تُضرِّي به الخطوبَ، وكذلك الهيئةُ* أحمى الحروبَ. وفي طرفٍ، أقمَرَ ليلُ البراهمة، وصالوا علينا بإفراط القوة الواهمة، ومِن جانبٍ، نَهَضَ الفلاسفةُ وطغوا ولا تطغى كمثله الرياحُ العاصفة.

---

* أي علمُ الفَلك والهيئة. (اللجنة)

وإنّ هذا الإسلام الذي بُدّلتْ حِلْيتُه وقُبّحتْ هيئتُه، تراه بينهم كرجل يداه مقطوعتان، ورجلاه تتخاذلان، يمنعه القَزَلُ من الفرار، وليس له يد ليحارب في المِضْمار. فما الحيلة عند هجوم هذه الخطوب ولزوم تلك الحروب، مِن غير أن يرحم الله من السماء، ويُرِيَ وجهَ الإسلام مع يده البيضاء. ومع ذلك ترون أن النُوَبَ الخارجية انتابت، ومَعَارِيَ الإسلامِ قبّحتْ، وغارَ منبعُه ومياهُه غاضتْ، وأقوَتْ مجامعُ الدين وانقطعتْ، وأقضّتْ مضاجعُ أهل الحق، والراحةُ هربتْ، واستحالت الحال وتواترت الأهوال، وانعقرتْ أَجارِدُ العقول، وخلتْ مرابطُها من العلماء الفحول. ونبا المَرابعُ بفقدان الصالحين، وكثُرت الأنعام وأودَى مَن كان من الناطقين. واحتذى الإسلامُ الوَجى، ودهَم المسلمين الشَجى. وتواترتْ أيامُ الخيبة والشقا والحرمان، واستوطنَ العقولُ وِهادًا، وما بقِي في الرؤوس إلا التكبّر كالشيطان. وإن الإسلام مُذْ أنزلَه الله على الأرض لم يرَ هذا الهوانَ، وما صار كمثل هذا اليوم الدِّينَ المهانَ. وليس في وسع المسلمين دواءُ هذه العلّة التي جرتْ على الألسن كالقصّة، ولا مساغُ هذه الغُصّةِ. فمَثلهم كمثل غريب فقَد مطيّته في الأعماء، وليس عنده شيء من الغذاء والماء، وكان في ذلك فإذا فاجأَه حزب من الأعداء، ومعهم سيوف وأسنّة وصالوا بشدة

البطش كالهوجاء، وكان له حبيب من أهل الحكومة والفوج والدولة، فبلَغه خبرُه وما أصابه من المصيبة، فالحقّ والحقَّ أقول إنه يبدُر إليه لنصرتِه، ويبلُغ مقامَه مع جنده وأعوان دولته، وينجي حبيبه ويجزي كلَّ أحدٍ جزاءَ جريمته. فذلك مَثل الله ومَثل دينه، ويعرفه العارفون. وإن كنتَ لا تعرف ففكّرْ في آية: ﴿إِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾، وإن في ذلك لآية لقوم يتدبّرون. فأَدْرِكْ فَائِتَك، واغتنِمْ ساعتَك، وأَشْفِقْ عليك وعلى عِترتك، ولا تنسَ أيام إقبال المسلمين، ولا تيأسْ مِن وعد اللهِ رَبِّ الناس، رَبِّ أجسامِهم ورَبِّ نفوسهم عند كونهم كالعمين. ألا ترى أن الآثار قد ظهرتْ، والآفات عمّتْ، والقلوب فسدت، وصغائر الذنوب وكبائرها كثرت، وكان قبل ذلك لا يقرُبون الفسق والفجور علانيةً، والآن يزني أحدٌ ويراه آخر ولا يعُدّونه سيّئة، وترى مجالس تنعقد بجواري زانيةٍ، ومزاميرَ ومُدامةٍ، ولا يعترض عليها أحد مِن حَلقةٍ، بل يسرّون برؤية تلك البغايا، ويقبّلونهن ويشربون الخمر بهن في وسط الأسواق من غير حياء وخشية، إن في ذلك لآية لقوم يتفكّرون.

وإن عمارة الإسلام قد انهدمتْ، وأموره تشتّتتْ، ورياح العداوة عصفتْ، فكيف ينكرون ضرورةَ حَكَمٍ ينصر الدين، ويقوّي ما ضعف ويُقيم البراهين؟ وأنتم ترون أن كثيرًا من الآفات نزلت على

الإسلام، وظلمات أحاطت قلوب الأنام، وكيف يُفتي قلبكم أن الله رأى هذه الآفاتِ كلها، وآنسَ الضلالاتِ والجهلات بأسرها، ثم لم يرحم عباده المستضعَفين، و لم يدرك حزبه الهالكين؟

وإن كنتم لا تعلمون سُنن الله أو تريبون، فانظروا إلى سُننكم التي عليها تداومون. وإنكم تسقُون زروعكم على أوقاتها، ولا يرضى أحد منكم أن لا يستعمل آلاتِ الحرث عند حاجاتها، وإذا بُشّر مثلا أحدُكم بجدارٍ مِن بيته يريد أن ينقضَّ ظلَّ وجهُه مصفرًّا، ويقوم ولا يرى بردًا ولا حرًّا، ويطلب المِعْمار ويرُمُّ الجدار، شفقةً على نفسه وعلى الأهل والبنين. فكيف يظنّ ظنَّ السوء بالله الكريم الرحيم، ويقول إنه لا يبالي ضعفَ دينه القويم، مع رؤية هذا الخلل العظيم؟ ألا ساء ما تحكمون، وتظلمون ولا تُقسِطون. ولو يؤاخذ الله هذه الأمّةَ بظلمهم لفعَل بهم ما فعَل قبلهم بعلماء اليهود، ولكن يؤخّرهم إلى الأجل الموعود، أجل مسمّى، لعلهم ينتهون ويتوبون إلى الله الودود، ولعلهم يتفكّرون. ألا يرون أنهم لمولاهم ما عملوا، وليوم الدين ما استبضعوا، ولينظرْ كلُّ امرئ أيمشي قويمَ الشطاطِ أو مُكِبًّا كالأنعام؟ وليتدبّرْ أنه سُرَّ بعين الزلال أو بملامح السراب والجَهام؟ انظروا كيف تكابدون الصعوبة لدنياكم، فأَنَّى كَرْبُكم كهذا الكرب لمولاكم؟ ويشهد كلُّ امرئ إنْ شاء أنه رجلٌ سعى في سبل نفسه

وما وَنى، ليحصل ما قصَد من الهوى، وما أُمِيطَ عنه قطُّ وَعْثاؤه وعَناؤه للدنيا ولله ما عنا، وبادرَ في هيئة الخاشع إلى الحكام، وما بادرَ خائفًا كمثله إلى الصلاة والصيام، وقصَد مجالسَ البَطَر والمِراح والفسق والرياء ولو كابدَ لتلك الأسفار الصعوبةَ، وما حضَر في سِكّتِه صلاةَ عَروبةٍ.

وإنْ كان هذا الرجل من العلماء، فيشهد عليه نفسه أنه أنفدَ عمره في الرياء، وما ارتقى قطُّ في منبر الوعظ والنصيحة والدعوة وما مثُل بالذِروة، وما بكى وما صاح عند اكتظاظ الجامع بحفله، وما أرى هناك رَعْدَ جَهامِه وجَفْلِه، وما برَز خطيبًا في أُهبة الأئمة، وما سلّم على عصبة الحاضرين عند تأهُّب الخُطبة، إلا وكان قلبه مملوًّا بأنواع الهوى، وكان يستكِفّ أكُفَّ الندى بالندى. وما قال: الحمد لله المعطي في بُدُوِّ خطبته، إلا ترغيبًا في العطاء وتشويقًا لعُصبته. وما قال: اللهُ الذي يقضي الحاجات ويحسِم أنواعَ اللأْواء، إلا ليحثّ الحاضرين على الإعطاء والإرواء. وما قال: إن الله يحبّ أهل السماح والجُود والكرم، ويُهلِك البخيلين كما أهلكَ عادًا وإِرَمَ، إلا ليرغّب المصلّين في الطَول والإحسان، ليملأوا كِيسه بالفضّة والعِقْيان.

وإن كان هذا الرجل من الصوفية الذين يبايعهم الناسُ لِيُثبِّتهم الله على التوبة، ويكتُب في قلوبهم الإيمانَ ويغرس فيها أشجار المحبّة، ويزيّن التقوى في أعينهم ويشرح صدورهم لأعمال الخير والبرّ والصلاح والعفّة، فلا شك أن قلب هذا المرء وزَرْعَه الإيماني يشهد عليه ويلومه ويلعَنه، بما يخالف ظاهرُه باطنَه، ويقول له: يا هذا ما هذا الشَرَك الذي نصبتَه، والشِرك الذي ارتكبتَه؟ ألا تعلم أنك رُجَيلٌ ما حظِيتَ مثقال ذرّة من علم الفقراء ولا من حلم الصلحاء؟ وما أُعطيَ لك سرّ من أسرار الدين، وما مسَّ قلبَك نورٌ من أنوار الشرع المتين، وما شُرح صدرُك وما أثمرَ سِدْرُك، وما علّمك الله علمًا من علوم المعرفة، وما آتاك رحمةً من عنده وما كنتَ مُجلِّيَ الحَلْبةِ، وما تحققتْ فيك آثارُ كاملٍ ومكمِّل، وما استُجيبَ بك دعاءُ مؤمِّل، ولست من الذين أُيِّدوا من جناب الحق في وقتٍ لا رِدْءَ معهم ولا مُساعِدَ، ولا من الذين فهّموا الناسَ أسرارَ الدين وأصولَه والقواعدَ، الذين كانوا للإسلام ممهّدين، وللملّة موطّدين، ولأدلّة الرسل مؤكّدين، ولقلوب الطالبين مسدّدين، والذين حفظوا الأقوام من الوساوس الشيطانية، والذين وصلوا الأرحام بالمنن الروحانية. ثم تسأله نفسه أيُّ فضيلة توجد فيك لتُعَدَّ من الأئمّة، ولِيتّبعَك الناس

لاستفاضةِ أنوار تلك الفضيلة؟ أأُعطيتَ معارفَ لا توجد في غيرك من العلماء والفقراء، أو تُفاض عليك أسرارُ الغيب أكثرَ مِن غيرك من حضرة الكبرياء، أو فيك قوّة قدسيّة فتُردَع الأهواءُ باتّباعك، ومَن ورِثك ببيعته يجدُ متاعًا من متاعك، ثم بعد هذا الإرث يُعِدُّ للرحلة إعدادَ السعداء، ويرحمه الله مِن عنده فيصير من الصلحاء، فيَدَّرِعُ حُلَلَ الورَع، ويداوي علّةَ العِثار والصَّرَع، ويسوّي كلَّ أَوَدِ العمل والاعتقاد والأخلاق، وينجو من سلاسل النفس وأغلالها وينـــزِلُ له أمرُ الإعتاق. وإنْ كنتَ ما أُعطيتَ كمثل هذه الصفة ونوع الكمال، فبيّنْ أيّ كمال أُخفِيَ فيك إن كنتَ صادقًا في المقال؟ أأُعطيتَ عصًا كعصا موسى، أو آيةَ الدم لمن عصى، أو يدَه البيضاء لمن يرى؟ أو أُعطيتَ إعجازًا كإعجاز القرآن، أو وُهِبَ لك بلاغةٌ كبلاغة رسولِ آخر الزمان؟ فإنّ الوليّ يأتي على قدم الرسول، ويُعطى له من الخوارق ما أُعطيَ لرسوله المتبوع المقبول. وقد اتّفق أهل القلوب على أن الولاية ظِلٌّ للنبوة، فما كان في الأصل من أنواع كمالٍ يُعطَى للظِلِّ علامةً للظِلّيّة. وكان من كمالات رسولنا ﷺ معجزةُ حسن البيان، كما هو تجلّى في مرآة القرآن، فمِن شرائط الولاية الكاملة إعجازُ الكلام، ليتحقق الظّلّيَةُ بالتشبّه التامّ. ولا يختلج

في قلبك أن هذا الأمر يقدَح في معجزة كتاب الله المجيد، فإن الظلّ ليس بشيء بل يتراءى بلباسه الأصلُ، ويتجلّى هويّةُ الأصل في مرآة الظلّ كما لا يخفى على الرشيد، ولو فُرض القدحُ لبطُلت المعجزات كلها بالكرامات، فإنها قد شابَهها في صورِ ظهورها على وجه الخرق وكونها فوق العادات. فلا شك أن هذا الوهم باطل بالبداهة ومن قبيل الأغلوطات، ولا يزعم كمثل هذا إلا الغبيّ الذي ذهب عقله بسيل التعصّبات. وليس عندنا جوابُ قريحة جامدة، وفطنة خامدة، ولا حاجةَ إلى ردّ هذه الخرافات. ولو كان لهذا الاعتراض مورد من موارد الصواب، فكان من الواجب أن يمنع رسول الله ﷺ صحابتَه مِن تكلُّمِهم ببلاغة البيان وفصاحة التبيان سدًّا للباب، ولكن الرسول ﷺ ما منَعهم وما أشار إلى أن ينتهوا من هذه العادة، وما ندّد بأنه من مناهي الشرع لما فيه رائحة من الشِركة، بل حَثَّ عليه في مواضع فما استقالوا منه ليتأدّبوا مع كلام حضرة العزّة، بل تصدَّوا للنظم والنثر وكثُر شغلُهم في هذه المهجة، ولهم أشعار وقصائد وعبارات ساقوها على نهج البلاغة، ودُوّنتْ في الكتب المشهورة. ومن المعلوم أنه كان طائفة من الشعراء الماهرين والفصحاء المتكلّمين موجودين في حضرة النبوّة.

ثم اعلم أن كلام الأولياء ظِلٌّ لكلام الأنبياء كأشكال منعكسة ومرايا متقابلة، وهما يخرجان مِن عين واحدة، وما هو ثابت للأصل ثابتٌ للظلّ مِن غير تفرقة، ولا يُعرَف كلامُ الولاية إلا بمشابهته بكلام النبوّة، في كل صفة وهيئة. وكفاك هذا إن كان لك حظٌّ من معرفة.

ثم نرجع إلى أول الكلام، فاعلمْ أن الزمان قد تغيّرَ بالتغيّر التامّ، وكثُرت المُعاصاة، وقلت المواساة، وازدُريَ أهلُ القلوب مع حلول الأهوال ومساورة الأعداء وحمل الأثقال. لا يرضى العدو إلا بسَكْرةِ مَصرَعِهم، وإعدامِ أثرِ مَطلَعِهم، وجَعْلِ اللحدِ مُودَعَهم، ويريد الحاسدون أن يطمِسوا مَعلَمَهم، ويُمِرّوا مَطعَمَهم. طالت ألسُنُ كلِّ سفيهٍ ورَعاعٍ، وغلب كلُّ مَسُودٍ على مُطاعٍ، وعقوقُ الأبناء أنقضَ ظهر الآباء، وولّد دواؤهم أنواعَ الدّاء. وتعوّدَ أكثر الناس مواصلةَ اللهو، وعوّدهم عُجْبُهم مداومةَ الزهو، وعكَس الآمالَ تعليمُ الصبيان، وصار حصادَ الأخلاق والإيمان، وغيَّر الهيئةُ هيئةَ الأحداث، وأحاط الطبعيّة طبيعتَهم فملكوا طرقَ الإلحاد كالميراث، ونسوا اللهَ وقدرَه، واتّخذوا الأسباب إلهًا وحسبوها كالغَوّاث، ويسخَرون من الذين آمنوا ويحسبوهم جاهلين ناقصين كالإناث،

ودخلوا في بطن الفلاسفة كدخل الأموات في الأجداث. ولم يبق لقومٍ شرحُ الصدر للإيمان لِما هَبَّ ريحُ الفسق وقسا القلوب بهذا الطوفان، إلا قليل من عباد الرحمن. وكل ما كان مِن أخلاق فاضلة وشمائل محمودة مرضية، فقد ركدتْ في هذا العصر ريحُها، وخبَتْ مصابيحُها، وقَلَّ التقوى والتوكل على الله القدير، وأفرط الناس في استقراء الحيل وتجسُّس التدابير. لا يؤمنون باقتدار الله ويومِ الأَثامِ، ولو كانوا مؤمنين لما اجترؤوا على الاجترام. ما بقي خوف الله في قلوبهم، فلأجل ذلك طغى سيلُ ذنوبهم، وعصفتْ بهم هَوجاءُ عصيانهم، وصارت عيشتُهم كلها لنفسهم وشيطانهم. أَسْلمَتْهم دنياهم للكُرَبِ، وألقاهم طلبُها في نار النُوَبِ، يتعلمون لها كثيرا من العلوم النُخَب، كمثل الهيئة والطبعيّة وفنون الأدب، فإنْ لم يُرفَعوا عند الامتحان وأُقعِدوا في الصَبَب، فكادوا يُهلِكون أنفسهم وتصعَد زفرتُهم كالسحب، وإنْ فازوا بمرامهم فيتمَرْمَرون عند نَجْحِ الإرب، ويرون قُرّةَ عينهم في المال وسكينتَهم في النَّشَب، هذه همُمُهم في منتجع الهوى ومرمى الطلب. يقرأون الكتب بشِقّ الأنفس والوَجى والتعب، ويبيتون مُدّكِرين ومفكّرين فيما ادّرسوا ويسبق بعضهم بعضًا في الخَبَب، ويُنضُون فيه رِكابَ طلبِهم حتى يُخاف عليهم

دواعيَ العَطَب، ويريد كلّ أحد منهم أن يكون حَظِيًّا ومالِكَ الفضّةِ والذهب، فيسعى له بجهد النفس في ليله ونهاره ويُذيب جسمَه في مطالعة الكتب، وترى كثيرًا منهم أَسَلَّهم شدّةُ جهدهم أو أخَذهم الصَرَعُ بهذا السبب، وذَهَبَ الحياةُ في هوى الذهب، وماتوا وغابت أشباحهم كالحُبَبِ، وانسدّت الحِيَلُ ثم نزل الأجل فخلَس أرواحهم بيد الحَرَب. فهذه مآل الدنيا ومآل شدة الجهد لها ونموذجُ شعبةٍ من الشعب. يا حسرة على الذين اغترّوا بحلاوتها ونضارتها ونسوا مرارة المنقلَب، وإذا قيل لهم اتقوا الله ولا تنسوا حظَّكم من العقبى، قالوا ما العقبى، إنْ هي إلا قصص نحتتْها أهل العجم والعرب. وأفرط كثير منهم في الطباع الذميمة، وفسدتْ نفوسهم ورعَنَتْ رؤوسُهم ومالوا إلى الخسّة والدناءة والبخل والشحّ والكبر والفسوق والمعصية، ورذائل أخرى من الرياء والشحناء والغيبة والنميمة. ولا ترى نفسًا ولّى وجهَها شَطْرَ الحضرةِ، إلا قليل من الأتقياء الذين هم كالنادر المعدوم في هذه الطوائف الكثيرة المستكثرة. وترى ألوفًا من الأحداث والشبّان، الذين تعلّموا العلوم الجديدة وفنون أهل الصلبان، ما انقاد قلوبُهم لرب العالمين، وظلموا أنفسهم بإنكار خالق السماء والأرضين. وما تقيّدوا بقيود الشرع وشِعار الإسلام،

وخلعوا خِلْعةَ الملّة وصاروا كالأنعام. وما بقي اعتقادهم في الله كما هو في الملة الإسلامية، بل خرجوا مِن حُكم الله ودخلوا تحت حكم الفلاسفة، وسلّموا نواصيَهم إلى أيدي الملاحدة الغربيين، وأعرضوا عن الحكمة اليمانية وعرفان العربيين، فجَرَّهم الملاحدة حيثما شاؤوا، وبعُدوا مِن رُحم الله وبغضب من الله باؤوا. وأشاطَهم شياطينُهم، ومزّقهم سراحينُهم، وأضلّتْهم طواغيتُهم، وشنّتْ عليهم الغارة ونزعتْ منهم يواقيتَهم، وقاموا إلى شَنِّ إيماهم فأهراقوا ماءَها، وما تركوا فيها إلا أهواءها. فبعث الله فيهم مصلحًا منهم ليردّ إليهم أموالهم، ويفيض المال ويؤمِنهم مِن أهوالهم، فإن المخالفين قوم لم يكونوا منفكّين مِن غير حجة بالغة، وضربة دامغة، بما بلغوا في نشأهم الظلمانية إلى هويّة إبليسية، واحتاجوا إلى عصا ثامِغةٍ. وإنهم تبعوا الفلاسفة في جميع ما رقَمه بنانُهم، ونطَق به لسانهم، ودخلوا بطونَهم، واستيقنوا ظنونَهم، واستحسنوا شؤونهم، واستبدلوا الزَقُّومَ بالتي هي لُهْنةُ الجنّة، وأخذوا الخَزَفَ وأضاعوا وِشاحَ دُرَرِهم اليتيمة الفريدة. وقالوا: ما انحلّتْ عُقَدُنا وما انكشفَ غطاؤنا إلا بكتب الفلسفة، وإنْ هي إلا حيل كاذبة، وكلمات مخلوطة بالمكر والفِرْية، بل ما حصلتْ لُبانةُ نفوسهم الأمّارةِ إلا في طرق الإباحة والخروج

من الرِبْقة المِلّيّة. ولا يعلمون أن شرائع الأنبياء قد هدَتْ إلى حضرةٍ غفَل عنها عقولُ الحكماء، وأوضحتْ أسرارًا لم يزل الفلاسفة في ظلماتٍ منها لا يعلمون طرق الاهتداء. والسر فيه أن الأنبياء يُلَقَّون العلومَ من الله العليم الحكيم، واللهُ لا يغفل عن النهج القويم، بل يجمع في بيانه علومًا صحيحة ودلائل مبصرة تُوصِل إلى الصراط المستقيم، لِما لا يجوز عليه الذهول. وهو نور كامل تَنــزَّهَ شأنُه عن ظلمة الرأي السقيم. وأما العبد فلا بدّ له أن يغفل عن شيء دون شيء، ويذهَل عن أمر عند أخذِ أمر آخر، وليس في يده قانون عاصم من الذهول والخطأ. وأما صناعة المنطق فمتاعٌ سَقَطٌ، وليستْ بعاصمة قطٌّ من هذه الهَوجاء. وقد ضلّت الحكماءُ الفلاسفةُ مع اتخاذهم هذه الصناعة إمامًا، وكثرتْ في آرائهم الاختلافات والتناقضات والشبهات، فما استطاعوا أن يقطعوا بها خصامًا، فلذلك تجد الفلاسفةَ يُخالف بعضُهم بعضًا في الآراء، وكلٌّ أحدٍ منهم يدّعي كمال الدهاء، وهذا هو الأمر الذي يتميّز به النبي ومَن تبِعه عن الفلسفي، فإياك أن تغفل عنها وتبعد من حضرة العليم العليّ.

وقد عثرتَ على أن هذا الزمان زمانُ الفتن والإلحاد والبدعات، ومُلئت الأرض ظلمًا وجورًا وقَلَّ عدد الصالحين والصالحات، ومِن

أعظم المصائب على الإسلام أن الذرّيّة الجديدة الذين ورِثوا شيوخهم المسلمين، يجهّلون أهلَ الإسلام بأجمعهم ويقولون إن الفلاسفة من الصادقين. وقالوا إنهم فازوا بدرجة التحقيق، وشربوا مستوفِين من هذا الرحيق، وأمّا الأنبياء فأصابوا بعضًا وأخطأوا بعضًا، وكلامهم مخلوط بسديد وغير سديد، وكانوا في الأمور الحِكَمية كغبيّ وبليد.

فانظروا إلى أيّ حدّ بلَغ أمرُ توهين الإسلام، وإنّ هذا لهو البلاء المبين ومن الدواهي العظام. ويقتضي هذا الموطن أن ينـــزل نورٌ من السماء، كما خرجتْ ظلماتٌ مخوّفة من أرضِ قلوب العميان والجهلاء، ليُوفي الله الموطنَ حقَّه ويُدرك الذين كانوا على شفا التباب، وهذا مِن سُنن الله كما لا يخفى على أولي الألباب.

ولا شك أن هذه السموم بلغتْ إلى حدّ أحسّتْ بها قلوب النسوان والصبيان، فضلاً عن عقول أهل البصيرة والعرفان، وما كان أمرُها هيّنًا بل لا يوجد نظيرها مِن بُدُوِّ الخِلقة إلى هذا الأوان، وأهلكتْ أكثرَ مما أهلكتْ سمومُ سابق الزمان. وما بقي خوف الله في زاوية من زوايا القلوب، ووسِعها حبُّ الدنيا وشغَفها كالمحبوب. فخُلِقَ في السماء بحذاءِ ما حدثت في خواطر الناس، ليكون الأمر لله الواحد

القهّار ويقطَعَ ما نسجه أيدي الخنّاس. فإن الغَيرة الإلهية لا تُعطِي الضلالاتِ عمرًا طويلا، وتَنـــزِل منه حربةُ الصدق ويقتل ما دجل الحقَّ حجةً ودليلا. ولا تحسبنَّ اللهَ مُخلِفَ وعدِه رسلَه، أو مُنسِيَ سُننِه وسبلِه، فإنه جواد كريم، يرحم عباده عند المصائب، ويُنـــزِل رُحمه عند انتياب النوائب، وكذلك جرتْ عادته مِن بُدُوِّ الخِلقة، وقد توعّدَ على إنكار هذه العادة.

فتَحسَّسوا مِن مجدّدٍ أين هو عند هذه الفتن وهذا الزمان؟ وقد انقضتْ على رأس المائة مِن سنين وثُقّبت الملّةُ بأسنّةِ أهل العدوان. ولا يترك الله مدنيةَ دينه كعمارة خُرّبتْ، وجدران هدّمتْ، بل يبني سُورَها ويُنجِي محصورَها، ويدُعُّ صَولَ الأعداء، ويُطفِئ ما ظهر من نار المِراء، حتى لا يبقى لمسلم من أيدي العِدا فزعٌ، ولا في هدمِ بيت الدين لكافر طمعٌ. وهكذا تمشّى أمرُ الله على مرّ الدهور، ولزِم ظهورَ المفاسِدِ لمعانُ هذا الظهور. وإن كنتَ لا تعرف هذه السُنّة فاقرأْ في القرآن ما قيل لموسى: ﴿اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى﴾*. فانظرْ كيف اقتضى طغيانُ فرعون وجودَ الكليم، وكيف أرسل الله رسوله عند غُلوّ هذا الكافر اللئيم! ثم لما ظهر الفساد وكثرت

* طه: ٢٥

أحزاب المفسدين في زمان خاتم النبيين، وعُبِدت الأصنام، وتُرك القدير العلاّمُ، ووقع في دَوكةٍ وبَوحٍ الأقوامُ، وأباحَ الفسقَ والمعصيةَ اللئامُ، وما بقي شغلُهم إلا الأكل والشرب كأنهم الأنعام، بعَث الله رسوله الكريم من الأُمّيّين، وأرسله إلى العالمين، وقال: ﴿قُمْ فَأَنْذِرْ * وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ * وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ * وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ﴾°. فحاصل الكلام أن نبيّنا ﷺ أُرسل لهذا الغرض المذكور من رب العباد، وما كان من نبي ولا رسول إلا أنه أُرسل عند فرعٍ من فروع الفساد، واجتمعت الفروعُ كلها في زمن نبيِّنا الحَمّاد السَجّاد. ثم جاء زماننا هذا فلا تسأل عما رأينا في هذا الزمان، واللهِ قد تمّتْ في هذا الزمن دائرةُ الفسوق والفحشاء والشرك والعدوان، وما ترَك الناس صغيرةً ولا كبيرة فما أصبرَهم على النيران! يستحسنون السيئاتِ ويستَحْلُون مُرًّا ويأكلون سمَّ العصيان. وكثر رعاعُ الناس وقلّ شرفاؤهم من أهل التقى والإيمان، وأنبتوا نباتًا خبيثًا ونشأوا في مجالس الإلحاد والارتداد والكفران، وأعطوا حقوق الله غيرَه وأخذوا طريق الطغيان، وما بقي مِن قوة ولا خُلُقٍ إلا أعطوها لغير الله الديّان. مثلاً كانت المحبّة جوهرًا شريفًا وخُلقًا أعظم في الإنسان، وأودعَه الله تعالى إياها ليُفني

° المدّثر: ٣-٦

نفسَه في تصوُّرِ جمالِ ربّه المنّان، وليكون له بالروح والجَنان، وليترقّى في سبل حبه ولا يبقى منه أثرٌ ويذوبَ وجودُه بنار العشق والوَلَهان، ولكن العميان بذلوا هذه الصفة الجليلة الشريفة في غير محلّها وأضاعوا دُرّةَ الإيمان، ووضعوا محبّة الله في مواضع أهواء النفس عند غليانها والهيجان، ونسوا اللهَ وحبَّه وشُغفوا بالغلمان المُرْد والنسوان، وغابوا عن حضرة الحق وجهلوا حُسْنَها، فويل للعميان. لهم أعين لا يبصرون بها، ولهم قلوب لا يفقهون بها، فتهوى تلك القلوب غيرَ الرحمن. ولصِق بها طائفُها فلا يترُكها في حين من الأحيان. يفعلون سيئاتِهم بالحريّة والاجتراء، حتى لا يُفهَم منه قطُّ أنهم يؤمنون بالله ويوم الجزاء، ولا يُتخَيّلُ برؤية أعمالهم أنهم يخافون مثقال ذرّة حضرة الكبرياء. فهذا هو الأمر الذي اقتضى مصلحًا ينـــزل بينهم من السماء، وكذلك جرت عادة الله في السابقين من أهل البغي والغلواء. وقد كتب الله قصة قوم نوح وقوم إبراهيم وقوم لوط وقوم صالح في القرآن، وأشار إلى أنهم أُرسلوا كلهم عند الفتن والفسوق وأنواع العصيان، وما عُطِّلتْ هذه السُنّة قطّ وما بُدّلتْ، وما كان الله نَسِيًّا كنوع الإنسان. فكفاك هذا لمعرفةِ سُنَنِ الله إنْ كنتَ تطلب دليلا، ولن تجد لسُنة الله تبديلا.

ثم اعلموا رحمكم الله أني امرؤ قد أعطاني ربي كلَّ ما هو من شرائط المصلحين، وأراني آياتِه وأدخلني في عباده الموقنين. وإنه أنزل عليّ بركاتٍ وأنار مكاني، وما بقي لي مِن مُنْية إلا أعطاني. ويتمنى الإنسان أن يكون من بيت الرياسة والإمارة، ويكون له حسب ونسب، فأعطاني ربي هذا الشرف كله وما بقي لي طلب. وكذلك يتمنى الإنسان أن يكون له وجاهة في الدنيا والدين، وكرامة وعزة في أهل السماء والأرضين، فوهب لي ربي عزة الدارين وشرّفني بشرف الكونين. وقد لا يرى الإنسان مَوالِيَه من ورائه، ولا يكون له ولدٌ يرثه بعد فنائه، فيأخذه غمّ وضجر وكآبة لعدم أبنائه، ويعيش حزينًا ويبكي في مسائه ورَواحه، فما مَسَّني هذا الحزن لطرفة عين بفضل الله ورحمته، وأعطاني ربي أبناءً لخدمة ملّته. وقد يهوى المرء أن يُعطَى له دُرَرٌ معارفَ وعلومٌ نُخَبٌ، وأن يحصُل له نُضار وعَقار ونَشَبٌ، فوهب لي ربي هذه كلها بكمال الإحسان والمنّة، وأنعم عليّ بنعم هذه الدار ونعم الآخرة، وأتمّ عليّ وأسبغَ مِن كل نوع العطيّة، وأعطاني في الدارَين حسنتَين من غير المسألة. وقد يودّ الإنسان أن يُعطى له محبّةُ الله كالعاشقين الفانين، ويُسقى مِن كأس المحبوبين المجذوبين، وقد يحبّ أن يُفتَح عليه أبواب الكشوف

والإلهامات، وأخبار الغيب والآيات، وتُستجاب دعواتُه بأسرع الأوقات، وتصدر منه عجائب الخوارق والكرامات، ويكلِّمه ربُّه ويشرّفه بشرف المكالمات والمخاطبات، فالحمد لله على أنه أعطاني ذلك أجمعَ، ووهب لي كلَّ نعمة كنت أقرأ ذِكرها في الكتب وأسمع، وجعلني من المقرَّبين، ووهب لي علم الأولين والآخرين، وحلَّ عقدةً من لساني، وأملأَ بمُلَحِ الأدب بياني، وحلَّى كلامي بحُلل البلاغة وقوّى سُلطاني. فواللهِ إن كلامي أبلغُ في قلوب الناس من مائة ألف سيفٍ، فهذا هو الذي وضعتُ الحرب بها وفتحتُ الحصونَ مِن غير جبر وحيفٍ، وما كان لمخالفٍ أن يبرُز في مِضْماري، ومَن برَز فمات قَعْصًا بإنكاري.

فالحاصل أن الله كرّمني بأنواع الصنيعة، ورزقني من نِعم الدنيوية والدينية، وراعَى أموري بالفضل والكرامة، وأحسن مثواي بالتحنن والرحمة، وبشّرني بأن عيونه عليّ في خَلْوتي ومشاهدي وفي كل حالي، وإنه يرحمني ويمنّيني ويؤمّلني عند أهوالي. وإني أرى كلَّ ما هو عنده كأنه هو عندي وفي يدي، وإنه كهفي وملجأي وتُرسي وعَضُدي. وإنه سَرَى في قلبي وعروقي ودمي، وإني منه بمنـــزلة لا يعلَمها الخَلق من عربي وعجمي وإنه خلقني وخَلَقَ كلَّ قوّتي.

فرجعتُ إليه مع هذه القوافل، وانهمرتُ إليه كما ينهمر الماء من قُنن الجبال إلى الأسافل. وأحاطني فغُشِّيتُ تحت ردائه، ومتَّعني بأنوار جماله فأعرضتُ عن أعدائي وأعدائه. وإنه نزَع عني ثيابَ الوَسَخ والدَّرَن، ثم ألبسَني حُلَلَ النور واصطفاني لِذاتِه في هذا الزمن، وما أبقى لي غيرَه وهذا أعظمُ المنن. ومن آلائه أنه شرح صدري وكمّل بدري، فما أصابني ضجرٌ قط لأفكار الدنيا وهجومها، وما أَحَسَّ أحدٌ كآبةً على وجهي وجبيني لهمومها وغمومها. وإنه جعلني مسيحًا موعودًا ومهديًّا معهودًا، ففرَط العلماءُ عليّ وقالوا مزوِّر كذّاب، وآذَوني مِن كل باب، وكذّبوني وفسّقوني وجهّلوني وما خافوا يوم الحساب، وسرَبوا إلى جهة وما تدبّروا الأحاديثَ وما في الكتاب. وجُذِبَ القوم إلى هذه الصائتِين وما استَقْرَوا طرقَ الصواب، وفرَضوا لهم من أمواهم وسُيوبهم ليداوموا على رَدِّ كُتبي وليكتبوا الجواب، فما كان جوابهم إلا السبّ والشتم والذكر بأسوأ الألقاب. ودعَوتُهم ليبارزوني في الميدان بفرسانهم، وليسألوا عني ما اختلج في صدرهم، وما خطر في أمري بجنانهم، فما خرجوا من بابهم، وما فصَلوا عن غابهم. وكان من شأنهم أن يُسفِر وجوهُهم ويتلألأ جباهُهم بالمسرّة عند هذه الدعوة، وأن يبادروا إليّ

ويُفحِموني بالكتاب والسُنّة، وإنّ الحق يشجِّع القلوبَ المزْءُودة، ويفتح الأبواب المسدودة، ولكنهم كانوا كاذبين في أقوالهم، ففرّوا مع عِصِيِّهم وحِبالهم. وقلتُ لهم جادِلوني بالكتاب والسنّة، وإنْ لم تقبَلوا فبالأدلّة العقلية، وإن لم تقبلوا فبالآيات السماوية، فما قبِلوا طريقًا من هذه الطرق الثلاثة، وأخذ بعضهم يعتذرون إليّ اعتذارَ الأكياس، وجاءوني تائبين وبايَعوني ونجّاهم الله من الوسواس الخنّاس. والبعض الآخرون أصرّوا على تكذيبي، وهمّوا بتمزيق جلابيبي، وقالوا كذبتَ فيما ادّعيتَ، وكبُر ما افتريتَ، وإن كنتَ تزعم أنك من الصادقين، فأْتِنا بآية توجب اليقين. وأصرّوا على سُؤْلِهم وأبرموني، وأحرجوا صدري وآذَوني، فأراهم الله آياتٍ صريحةً من السماء، فأبَوا وأعرضوا كما هي سيرة الأشقياء، وجحدوا بها واستيقنتْها أنفسُهم وما آثروا طريق الاهتداء. بيد أنهم نزَعوا عن إرهاقي، بعدما رأوا خوارقَ خَلاّقي، وقَلَّ احتدادُ اللَّدَدِ وشدّةُ الخصام، بل جعل بعضُهم يخضعون بالكلام، واتخذوا الأدب شِرعةً، والتواضعَ مهجة. وحُبِّبَ إليّ مُذْ أُمرتُ من الله ذي الآيات، أن أعاشر الناس بالصبر والمداراة، وأن أبدي الاهتشاش، لمن جاءني وترَك الاحتراش. واتخذتُ لي هذه الشِرعة نُجْعةً، ورجوتُ به من

العِدا تُؤَدةً، فتَعرَّى كبرُهم كتعرِّي الجبال بعد انجياب الثلوج، وما بقي فيهم من الأدب المعروف المروج. وعجبتُ من قلبي كيف يأخذني الرُحمُ على هذه العِدَا، على أني لم أَلْقَ منهم إلا الأذى. وقد أرادوا سفك دمي وهتك عِرضي وكلّموني بكلمٍ كالقَنا، ولبِسوا الصفاقة، وخلعوا الصداقة وأقبلوا عليّ إقبالَ سباعِ الفلا، إلا الذين تابوا وأصلحوا وكفّوا الألسن وعاهدوا أن يجتنبوا الفحش وأن لا يتركوا التقى. وما أسألهم من أجرٍ لِيُظَنَّ أنهم مِن مَغْرَمٍ مثقَلون، وما أَمثُلُ بين يديهم ليُعطونِ، ولي ربٌّ كريم يكفلني في كل حين، وأرجو أن أرحل من الدنيا قبل أن أحتاج إلى الآخرين.

ووالله إني جئت الناس لأَجُرَّهم من المَحْلِ إلى غرارة السُحُب، ومِن الجهل إلى العلوم النُخَب، ومن التقاعس إلى الطلب، ومن الهزيمة المخزية إلى الفتح والطَرَب، ومن الشيطان إلى الله ذي العجب، وأريد أن أضَع مَرْهَمَ عيسى مَواضِعَ النُقَب*، ولكنهم ما صالحوا

* إنّ مرهم عيسى ينفع كلَّ أنواع الحِكّة والجَرَب والطاعون والقروح والجروح وغيرها من الأمراض التي تحدُث من فساد الدم، ركَّبه الحواريون لجروح عيسى عليه السلام التي أصابته من الصليب، والمراد ههنا من الحكّة حكّة الشكوك والشبهات كما لا يخفى على اللبيب. منه

ولفتوا وجوههم إلى الخصام، ونصّلوا إليّ أسهُمَ الملام، وصاروا سِباعًا بعد أن كانوا كالأنعام، إلا قليل من الكرام.

وإني جئتُهم بآيات وقمتُ فيهم مقامَ المبلِّغين، ونصحتُ لهم نصحَ المبالغين، وكانوا من قبل يطلبون هذه الأيام وإقبالها، ويستَقْرُون دولةَ السماء ليتفيّأوا ظلالَها، ثم إذا أفضى الحقُّ إلى ديارهم، ونزلت الرحمة على دارهم لانتظارهم، فحرِجتْ صدورهم، وانطفأت نورهم. وإننا ألفَينا كثيرا منهم في سجن الجهل وتركِ الاقتصاد، فلا يريدون أن يتخلّصوا من هذا السجن ويتّخذوا سبل السَّداد، بل له باب من حديد التعصّب والإعراض والعناد، فلذلك أوسعوني سبًّا وأوجعوني عتبًا. فمثلهم كمثل الرجل الذي كان يُنفِد عمره في كَمَدٍ، لخُلُوِّه عن ولدٍ، وكان يحضُر الفقراء والعرّافين، ويستقري حيلةً بدعاء أو دواء للبنين، فلما مَنَّ الله عليه بحمل زوجته، وتحقّقَ أمر حصول مُنْيته، رغِب في الإسقاط قبل النتاج، ليضيع الولد لشهواتٍ أرادها وليكسر الجنين كالزجاج. فالحق والحق أقول، إن هذا هو مثل الذين يؤذونني من العدوان، ويَعْتَتِبون الطريق ولا يطأون أقوَم الطرق وأسهلَها للعرفان. وكانوا يطلبون من قبل ويدْعون الله

كالعطشان، ثم شاهت الوجوه عند خروجي بقدر الرحمن. وكم من داعٍ أعولوا كماخِضٍ في البكاء عند الدعاء، وبلغتْ رَنَّتُهم إلى السماء، فاندلقتُ عند هذه الدعوات، وبرَز شخصي بتلك الجذبات. وكنتُ غائبًا معدومًا ما ملكتُ لفظَ "أنا"، فكانت دعواتُهم ما أبرَزَنا وهَلْمَمَ بنا. ولما جئتهم كان من شأنهم أن يمتلئوا حبورًا، وأن يحمدوا الله على بعثي وليهنّئ بعضهم بعضًا سرورًا، ولكنهم أنكروا وسبّوا، وسعوا في سبل التكفير وخبّوا، حتى تبيّن أنهم من الأعداء لا من الطلباء، فأعرضتُ عنهم كاليائسين، لِما رأيتُ في صياغتهم دَجْلَ الغاشّين. وسيأتي زمان يتعلق عالَمٌ بأهدابي، ويتبرّك الملوك بمساس أثوابي. ذلك قَدَرُ الله ولا رادَّ لِقَدَره. وما قلتُ هذا القول من الهوى، إن هو إلا وحي من ربّ السماوات العُلى. وأوحى إليّ ربي ووعدني أنه سينصرني حتى يبلغ أمري مشارق الأرض ومغاربها، وتتموّج بحور الحق حتى يُعجِب الناسَ جبابُ غواربها.

هذا ما أردنا أن نكتب شيئا من مفاسد هذا الزمان، ونزّهْنا كتابنا هذا عن إزراء الأخيار الذين هم على دين من الأديان، ونعوذ بالله من هتك العلماء الصالحين، وقدحِ الشرفاء المهذّبين،

سواء كانوا من المسلمين أو المسيحيين أو الآرية⊙، بل لا نذكر مِن سفهاء هذه الأقوام إلا الذين اشتهروا في فضول الهَذَر والإعلان بالسيئة. والذي كان هو نقيَّ العِرض عفيفَ اللسان، فلا نذكره إلا بالخير ونُكرمه ونُعزّه ونحبّه كالإخوان، ونسوّي فيه حقوقَ هذه الأقوام الثلاثة، ونبسط لهم جناح التحنن والرحمة، ولا نعيب هؤلاء الكرام تصريحًا ولا تعريضًا رعايةً للأدب، فإن في المَعاريض لمندوحةً عن الكذب. ولا نغتاب المستورين قط، ولا نأكل أبدًا لحم العبيط من غير العارضة، الذين عرضوا أنفسهم لكل نوع السيئات وأعلنوها على رؤوس الشاهدين والشاهدات، ولا يزالون يقعون في أعراض الناس، ويجعلون دينهم تُرْسًا عند إظهار هذه الأدناس. وتجد في كل قوم كثيرا من هذه الفِرقة، فإن كنت لا تعرف فاستعرِض الأقوام كلهم، وسَلْ مَن شئت عن هذه الحقيقة. وإنهم مِن عُرْض الناس وعامّتهم، ليس لهم قدر في أعين شرفاء الأقوام، يسبّون الأكابر ويُكثِرون اللَغَطَ بوهم من الأوهام. تراهم باكين تحت ذلّة وخصاصة، ويكون مدار مذهبهم حطامَهم فيبدّلونه به ولو بقُصاصة. فالحاصل أنا ما ذممنا في هذه الرسالة، إلا الذين يجاهرون

⊙ *هم فرقةٌ من الهندوس. (اللجنة)*

بمعاصيهم ويجترئون كالبغايا على أنواع الخباثة، ويُظهِرون عيوبهم وعاداتِهم الشنيعة في وسط الأسواق، ويكشفون ما ستر الله عليهم ويبلّغون خفايا عيوبهم إلى الآفاق. فلا غِيبةَ لفاسقٍ مجاهِرٍ عند العاقلين، فإنهم خرّبوا بيوتهم بأيديهم كالمجانين. وكلّ ما قصصنا على الخَلق مِن قصصِ أشرار هذه الزمان في الكتاب، فلا نعني بها إلا نفوس هذه الأحزاب. وإنّا بَراءٌ مِن تهمة ذمّ المستورين القليلين، ونفوّضهم إلى عالِم العالَمين، وإنما نذمّ الذين يفعلون السيئات معلنين.

وأيّ رجل يشكّ في هذا.. أن السيئات قد كثرت في زمننا هذا مع فساد العقائد، وما فينا إلا من يصدّق هذا، فسَلْ من العامة والعمائد. وكثرت الفِرق الضالّة، وتراءت في كل طرفٍ الضلالةُ، وأكل المتعصّبون القذر كما تأكل الجَلّالةُ. والأصل في ذلك ما رُوي عن سيدنا خير الأنام، وأفضل الأنبياء الكرام، وهو أنه قال ﷺ حين أخبر عن أواخر الأيام: لتسلُكُنَّ سَنَنَ مَن قبلكم حَذْوَ النعل بالنعل. وأراد عليه السلام مِن هذا أن المسلمين يشابهونهم في جميع أنواع الدجل والجعل، وقال لتأخُذُنّ مثلَ أخذِهم، إنْ شِبرًا فشبرًا، وإنْ ذراعاً فذراعًا، وإنْ باعًا فباعًا، حتى لو دخلوا جُحْرَ ضَبٍّ لدخلتموه معهم.

ولا يخفى على العالمين أن بني اسرائيل قد افترقوا على إحدى وسبعين فرقة، فأوجبَ منطوقُ هذا الحديث أن تكون كمثلها فِرَقُ أُمّةِ سيدنا خاتم النبيين عِدّةً. وهذا الافتراق لم يكن في القرون الثلاثة من قرن النبوّة إلى قرنِ تَبَعِ التابعين، بل ظهر بعد نفاد الأعوام والسنين، ثم ازداد يومًا فيومًا حتى كمل في هذا الزمان، بما زاد الغِلّ ونزع العلم من صدور الرجال والنسوان، واتخذ الناس أئمّتَهم جُهّالاً، الذين ما أُعطُوا علمًا ولا كأهل القلوب حالاً، فضلّوا وأشاعوا ضلالا. ونرى أن شوكة الدين وصِيتَ جَدِّ رَبِّنا قد أَرَزَتْ إلى الحجاز، كما تَأْرِزُ الحيّةُ إلى جُحرها عند الأوشاز، ما بقي عظمةُ الدين وعزّةُ حدوده إلا في مكّة والمدينة، وترى فيهما أطلال هذه العمارة كعِقْيانٍ قليلٍ من الخزينة، وإن كنّا نرى بعضَ بدعاتٍ أيضا في هذه الديار في قليل من العباد، ولكن قد طرأ أضعافُ ذلك على غيرها من البلاد. ثم مع ذلك لا نجد ريح قوة الإسلام وعِرضه إلا في تلك الأرض المقدسة، وأما الأرضون الأخرى فلا نراها إلا كالأماكن المنجّسة.

فالحاصل أن الذنوب كثرت في هذا الزمان مع ترك الحياء، بل هي أُدخلتْ في العقائد والآراء، وجاهرَ الناسُ بها وصار الزمن كالليلة الليلاء. وعلى ذلك ترى القسوس يُضِلّون الناس بأغلوطات في

تحرير وبيان، ويعرِضون على الناس أموالهم وبناتًا من أهل صلبان، ويرغّبونهم في ملّتهم بعَقار وعِقْيان، ويزيّنون حُرّيّتَهم في أعينهم ويسقُونهم من ألطفِ مُدامة، فيرى المرتدّون أن الصوم والصلاة والعفّة كانت عليهم كغرامة. فالملخص أن الكفر يحارب كمثل هذا والحرب سِجال، والله غيور لدِينه فكيف يصدر منه اعتزال. وما ينقضي يوم إلا والبدعات تتجدّد، والعدوّ يحرّف الكلم ويتزيّد، وافترقت الأُمة الإسلامية وركِب كلّ أحد جُدّةً من الأمر، فذهب رجال إلى قوانين القدرة والفطرة من الزُمَر، وقالوا لن نقبل معجزاتِ الأنبياء والكرامات، فإنها قصص لا يصدّقها قانون الفطرة ولا نجد نموذجًا منها في سلسلة المشاهدات. واختار قوم سوادًا أعظمَ ولو جمَع الأشرارَ، وقالوا مَن سلَك الجَدَدَ أَمِنَ العِثارَ*. ولا يعلمون أن الإجماع قد كان إلى زمن الصحابة، ثم

* هذا مَثلٌ من أمثال الجاهلية، يُضرَب حثًّا على الاتّباع، والغرض منه مدحُ الإجماع، وقالوا مَن شذَّ وانفرد عن الجمهور، فمَثله كمثل رجل نزل بتَلْعةٍ وما نزل بنَجْدٍ من الحُسور، فجاء السيل وجرَف به مع جميع ما كان من البَعاع؛ فالغرض أن المرء على خطر في الانفراد وفي التِلاع. هذا وأنا أقول إن هذه الأمثال ليست في كل محلّ واجبةَ الاتّباع، وإنهم ما فهموا مواردها وما نطقوا إلا كالثاع، وما آمنوا بالنبيين الصادقين المنفردين وصالوا عليهم كالسباع. منه

حدَث الفَيجُ الأعوجُ وانحرف كثير منهم من الجادّة، ولذلك اشتدّت الضرورة إلى بعث الحَكَمِ من الرحمن، وكان ذلك وعدٌ من الله المنّان، فإن القوم جعلوا القرآن عِضِينَ، وادّعى بعضهم أهم من المحدّثين، وشمّروا عن ذِراعَيهم لتخطئة المقلِّدين، وقوم آخرون يقولون إن الإسلام قد بطُل في هذا الزمان شَرْعُه، وتجدّدَ ضَرْعُه، وقالوا ما هو إلا كسَمَرِ البارحة، وليس كمَرْهَمِ القروح بل كالأشياء القارحة. وقد بثّوا تلك الآراء، ونثّوا هذه الأهواء. فانظر كيف تمادَى اعتياصُ المسير، وسرَتْ هذه العقيدة في أكثر الناس من الفقير والأمير، وصارت الشريعة كبئر معطَّلةٍ ومِصرٍ حصيدٍ في أعين الحكام، فلا يُحرَزُ جَنَى عُودِها كما هو حقُّها مِن دُوَل الإسلام، وما نرى مَلِكًا من ملوك ملّتنا عند الأثام أن يراعي حدود الشريعة عند تنفيذ الأحكام، بل يتوغّرون غضبًا إذا وُعظوا لهذه السبيل، ولا يخافون قهر الرب الجليل. يقطعون الأنوف ويفقأون العيون، ويحرقون بأدنى جرمٍ ويُغرِقون، ومع ذلك لا يستَقْرُون اليقين ويتّبعون الظنون. يُذبَح كثير من الناس عند اشتعالهم، وقَلَّ مَن غُمِرَ بنوالهم. يقتلون الناس بقُصاصة، ولو كانوا من ذوي خصاصة. وإذا اعترتْهم شبهة في خيانةِ رجل من

الرجال، فليس عندهم جزاؤه مِن غير سفك الدم والاغتيال. يُسلِمون البَراءَ للكُرَب، ولا يخافون الله ويومَ نزول النُوَب. لا يراعون العدل عند المكافاة، ولا يميلون من المَصافّ إلى المصافاة. لا يعلمون شرائط أرباب الأمر والسياسة، وما أُعطوا حظًّا من الفراسة. يقولون إنا نحن المسلمون، ويعملون على رغم وصايا الإسلام ولا يخافون. يداومون على السِيَر التي تُبايِنُ الورعَ والتقاة، ولا يبالون الصوم ولا يقربون الصلاة. لا يأخذون سبل العدل عند رؤية عثرات الناس، ولا يحزُمون عند تطلُّب المَثالب ويتّكئون على السُّعاة الذين هم كالخنّاس. وكثير منهم ينفدون أموال الرعايا في الشهوات، ويأخذون بالظلم ثم ينفقونها في مواضع الهَنات، ولا يراعون مواقعَ البِرّ ويتمايلون على الإسراف، وما تراهم إلا في مواضع اللعب واللهو لا على سُرر الإنصاف. ولا شك أن سيئات الملوك ملوكُ السيئات، لِما يبلغ أثرُها إلى العجائز والأيتام والصالحين والصالحات. وكم من رجال يخمُلون بظلمهم بعد النباهة، ويُزدَرون لِرَدِّهم بعد الوجاهة. وتراهم يضيّقون على الناس سبيل لقائهم بالبوّابين، فيجد إلى السِّعاية طريقا كثيرٌ من الساعين، ويأتون أبوابهم ويدّعون ثبوتا وتحقيقًا،

ليطلُبوا لشَمْلِ غريبٍ تفريقًا. ويختلقون أضاليل، ويلفّقون أباطيل، فيُجهِزون بها الضعفاءَ المجروحين، ويؤلمون المتألّمين، ويعقّبون الأزواجَ على أزواج، ولا يراعون حقوقهن ويذبحوهن كنِعاج. لا ينظرون إلى البلاد كيف خربتْ وتشعّثتْ، وإلى الرعايا كيف تعكّستْ وتعلّثتْ، وإلى الأجناد كيف نصَبتْ ووصَبتْ، وإلى الجياد كيف عطلَتْ وعطِبتْ. ولا يتركون درهما مما وظّفوا على ضِياع الرعيّةِ، ولو هلكتْ دوابّهم وضاعت زروعهم من الآفات السماوية أو الأرضية، ويعاقبون للخراج ولو لم يتعهّد الأرضَ العِهادُ، وأمحَلَ المُلكُ وذابت من الجوع الأكبادُ، ولو أعوزَت العُلوفات، وعزَّت الأقوات. ولا يبالون حتى تَهلِك الرعايا أو تلفَظهم أرضٌ إلى أرض لشدائدِ امتراءِ المِيرة، ويتيهون مع صبيانهم سائلين على ضعفٍ من المريرة، ولا يملكون فتيلا، ولا يجدون إليه سبيلا. لا يبقى لهم متاع ليستظهروا به على الأيام، ولا ضِياع لِما ينهَبه سَنَةُ جَمادٍ وجوعٌ صائلٌ كالضِرغام، وعدمُ الرِّيف ومنْعُ بيعِ الأرض مِن الحكّام. وتشتدّ البليّة حتى تُسقِط النساءُ الأَجنّةَ، ويُعوِل الأبناءُ ولا يجدون المِيرة. ومع ذلك يستَقْريهم الشرطيّون لخراجِ المَلِكِ ويأخذوهم أخذةً رابية، ويعاقبون ويقولون أين

تفرّون وعليكم هذه باقية. فيبكون ويقولون يا ليت المَنيّة كانت القاضية. ولا يسمعون زفيرهم ولو ألقوا معاذيرهم. هذه عِيشة رعاياهم وهم على الأرائك يضحكون، ويشربون الخمر ويتمَرْمرون، وبالجواري يلعبون، وفي الليالي يزنون، وفي النُّهُر يظلمون، وإذا جاءهم أحدٌ من الذين أصابتهم مصيبة وأخذهم داهية فيشتمون ويدُعّون، وإذا عُرِضَ عليهم قصّةُ مصيبتهم تضرّعًا وآدابًا، فيُعرِضون ساكتين ولا يردّون عليهم جوابًا، ولا يعبأون بمقالهم، ولا يبالون تضرُّعَهم وما نزل لهم من أهوالهم. و لم يزل أمرُ الظلم يزداد، والنفوس تُصاد، حتى يبور الرعايا وتخرب البلاد. وإنهم من ملوك المسلمين!! ولا نقصّ عليكم قصة الآخرين.

فندعوك يا قدرَ السماء، أين أنت من هذه الأمراء؟ الرعايا يُصلِحون الأرض بشِقِّ الأنفس للزراعة والغراسة، وإذا استُخرجتْ فيكتبون الخراج عليهم ولا يؤدّون شرائط السياسة. ومن المعلوم أن الرعيّة تؤدّي الخراج إلى الوُلاة، لكونهم من الحُماة، وإذا فاتتْ شرائط التعهد والتكفّل والحماية، فزال الحق كأن الرعايا خرجتْ من تلك الولاية، بل الخراج ما بقي خراجًا الذي يوظَّف على الفلاّحين،

وصار كالجزية التي تُضرَب على رقاب أهل الذمّة المغلوبين. فالحاصل أنهم يأخذون خراجهم إنْ أصاب المطرُ أرضَ الفلاّحين أو لم يُصِبْ، وهذا عدلُهم فانظرْ واعجَبْ.

وكذلك لهم عادات أخرى لا يمكن شرحُها، ولا يُوسَى جرحُها. تمرّ لياليهم بالخمر والزَّمْر، ونُهُرُهم في النَرْد والقَمْر، ومع ذلك يتمنى كل منهم أن يكون مَهيبًا في أعين الناس، ومظفَّرًا عند البأس. وتجدهم عظيمةَ النَّهْمةِ في الشهوات الدنيا ولذّاتها، ومستغرقين في ملاهيها وجهلاتها. لا يفارقون كأس الصهباء، ولا أدناس الندماء. لا يُطيقون أن يسمعوا نصيحة، أو يحتملوا من الوعظ كلمة، فيأخذهم عزّة، ويتوغّرون غضبًا وغيرة، ويكون أكرمَ الناس عليهم مَن زيّن لهم حالَهم وحمِدهم وأعمالَهم. يجدون الإمارة والدولة في حداثة السنّ وعنفوان الشباب، فيجُرّهم أهواؤهم وندماؤهم إلى طرق التباب. لا يكون لهم معرفة بتدبير الناس وضبطِ أمورهم، ولا يطّلعون على ضمائرهم ومستورهم، ولا يُعطَى لهم دهاءٌ يُحفَظ به اقتصادٌ وتوسّط واعتدال، فيُسرِفون وتكون ذخائرُ الدنيا وخزائنها عليهم وبال. وإنْ أصابهم غمّ فلا يكون لهم صبر واستقلال، وربما يذهبون إلى نَهابِرَ بأقدامهم فيحلّ عليهم غضب الله ويأتي زوال. لا

يرضَون عن نِحْريرٍ أتقنَ أمور السلطنة، ويتّخذون الرَّعاع أخدانًا كالنسوة، فيكون آخر أمرهم الانتحار، أو الجنون أو الفضيحة والتبار. لا يُعطَون فراسة صحيحة، ولا كالعقلاء قريحة. وتعلَمُ أن من شرائط الوالي ذي المعالي، أن يُعطى له مِن دماغ عالي، وعقلٍ يبلغ إلى الأعماق والحوالي، ونور يحيط الأسافل والأعالي، وأن يعرِف ضميرَ المتكلّم، ويفرّق بين المتكلّف والمتألّم، ويكون على بصيرة كأنه نُوجِيَ بذات الصدور، أو تكهّنَ بما كان من السرّ المستور. ومن شرائط الإمارة، أن يفرّق الأمير بين الورَم والوَثارة، وأن يفهم دقائق الأمور السياسية ويفُوقَ رأيُه آراءَ جميع أركان الوزارة، وأن يعظُم رعبُه وتُنفَّذ أحكامُه بالإشارة، وأن يقدر على ضبط الأمور والأخذ فيها بالثقة، وأن يؤدّيها بالتروّي والمَضاء فيها على وجه البصيرة الصادقة، وأن تكون له أنوارُ دراية القلب كالخَضِر عند اعتياص المسير، وعند القَحْم في السبل المخوفة من دقائق التدابير. ولكن كيف يدركون هذا المقام، ولا يخافون ربَّهم العلاّم، ولا يتكلمون بوجه طليق، ولا ينطقون إلا بعبسٍ ولسانٍ ذليق؟ فلذلك يلتبس عليهم سرُّ الناس، ولا يطيقون أن يزِنوا الناسَ وَزْنَ القسطاس، فيتوغّرون غضبًا على من يستحقّ الرحمَ ويرحمون

مَن هو كالخنّاس. يُودِعون المستحقّين لهبًا، ويُعطُون البطّالين ذهبًا. يحارب اللهُ قلوبُهم ويسُرّ الشياطينَ ذنوبُهم. والذين يُتَخَيّرون لتأديبهم وتهذيبهم في عهد الصبا، فهم يرغّبونهم في الخمر والزَّمْر وعلى منادمةٍ على الرُبَى، ويستَقْرون حِيَلاً لذلك في أوقات المطر وعند هزيزِ نسيم الصبا. فيَتَوَتَّحون من الشراب في بعض الأوقات، ثم يزيدون ويداومون ويُنشَّؤون في مثل هذه العادات، ويقولون هل من مزيد عند المنادَمات، ويحفِدون إلى استيفاء اللذّات. وكذلك يسوِّدون كتاب أعمالهم قبل أن يخضَرَّ إزارُهم، ويَبقُل عِذارُهم، ويتعوّدونه يومًا فيومًا، ولا يبالون لعنًا ولا لومًا. ويزعمون أن الخمر يقوّي أبدانهم، ويوقظ ثعبانهم، ويُغرِي على البغايا شيطانَهم. ويظنون أن الخمر تحُطُّ عنهم ثِقل الهموم، وتضع عنهم عِبْءَ الغموم. ويقولون إنها تفرّح البال، وتُزيل اللغوب والاضمحلال. وإذا شربوا فيَهْذُون طول النهار، ويصرّون على من لم يذُقْ من الأحباب والأنصار، ويقدّمون إليهم كأسًا بأيديهم ويسقون بالإصرار، فيشربون ما أُحضرَ كراهةً أو بالانقياد، ثم يتعوّدونها فتدور الكأس كلّ ليل حتى يسقطوا كالجَراد. ويجعلون النهارَ للزينة واللباس، والليلَ للكأس. وقد تجتمع إليهم في بعض لياليهم بغايا السوق، ويُكْرَمْن ويُعْظَمْن وتُقدَّم إليهن كؤوسٌ من

الغَبوق، فلا يزالون يتعاطَون الأقداح، ولا يفارقون الراح، ويُظهِرون بالقهقهة المِراحَ، ويتذاكرون في مدح الملاهي وأنواع اللذّات، فقد يجرى الكلام في ألطفِ نوع الخمر وقد يدور القول في مدح المغنِّيات. ويقول أحدٌ: إني آليتُ أن لا أتزوج إلا هذه البَغِيَّ، ويقول الآخر: إنْ فُزتَ فقد وجدتَ الكوكب الدُرِّيَّ. ويتزوّجون البغايا فيسري سِيَرُهنّ في وُلْدِهنّ، ويصدر منهم الرذائلُ طبعًا لا من الإرادة، ولا يوجد فيهم كأمّهاتهم خُلقٌ حسنٌ ولا رائحةٌ من العفّة والزهادة، نعمْ يوجد كالبغايا نوعٌ من الجَلادة، مع القرائح الوقّادة، وحُبِّ الزينة وهوى السَيدودةِ والسيادة، فيتكبّرون ويهلكون وقلَّ أن يُختَم لهم بالسعادة، ويبرُز أكثرُهم على عادة الغمّازين والنمّامين، وكالجواري الزانيات مُعجبين متوغّرين مستشيطين، وبالكبر رقّاصين. لا يوجد في بطونهم إلا صديد البخل والغِلّ والعناد، ولا يرضون إلا بالتفرقة والفساد. لا يصنعون بعباد الله إلا شرًّا، ولا يُضمِرون إلا ضرًّا. يتباهَون بفوز الدنيا الدنيّة، مع دعاوي الرهبانية. يعادون الصدق وبنِيه، ويَلحَقون بمن يناويه. يُنبَّهون على خطئهم، ثم لا يندمون على بادرة إزرائهم. ومَن تصدّى لاستبراءِ زَنْدِهم، واستشفافِ فِرِنْدِهم، فلا يجدهم إلا سقَطًا خاليًا من خير الدنيا والآخرة، ومِن أَوتَحِ الناس

ومِن أسارى الخنَّاس، ومن الفئة المفسدة. وكيف كان على رشد مَن خرج مِن رحم الزانية؟

فلا شكّ أن البغايا قد خرّبن بلداننا، وأضللن شبّاننا، وبهن وبوُلْدِهن حَقَّ قولُ نبيِّنا المصطفى كما تعلم وترى، وصدَق ما قال سيّدنا ونبيّنا في علامات آخر الزمان، فإن نطفة البغايا قد خامرَ أكثرَ وُلْدٍ وتُمْلَأُ منه أكثرُ البلدان، وما نقَصنَ بل يزددن كَمًّا وكَيفًا وخُبثًا وضرًّا، وكلّ يوم هلمّ جرًّا. وهذا ما قدّر الله لهذا الزمان وأتاح، وطوبى لمن أعرضَ عنهن وراحَ. وويل للذين تمايلوا على رغائب الشهوة، ومالوا إلى هذه الفئة الفاسقة، بدون نظر إلى العاقبة. يموتون لاستيفاء اللذّة، ويتلُون تِلْوَ البغايا كسكارى الحانة، وينهضون على أثرهن كجدايا الظَبْية وأَجْرِيةِ الكلبة، ويدورون بهن كما يَدُرْنَ في أهواء النفس الأمّارة، وقد سمّاهن رسولنا ﷺ ظَبيةَ الدجّال، وقال قد قُدّر خروجُهن قُدّامةَ هذا المحتال، ليُنذِرنَ بظهوره كدلالةِ كثرة الفأر على الطاعون الأَكّال. والسرّ فيه أن البغايا حزبٌ نجِسٌ في الحقيقة، ويُظهِرن على الناس طهارتهن ونظافتهن بأنواع الزينة والألبسة والتهاب الخدّ والنعومة. وهذه دجلٌ منهن كالدجّال وشابَهْنَه بأتمّ المشابهة، فجُعلن كإرهاص له علامةً لهذه المماثلة. ثم إن

الدجّال ليست أفعالُه كالرجال، بل يستُر وجهه الكاذب كالنساء ويُرِي نفسَه كالصادقين لصيد الجهّال، ويُخفي مكائده كقَحْبةٍ يُخفِي شَيبَها بالادِّهان والخضاب وأنواع الأعمال. ففي هذه إشارة إلى أن للدجّال والبغايا لَسيرةً واحدة وهذه الفرقتانِ تشابهان في الحيل والأفعال، وتماثلان في الافتعال وجذبِ القلوب بلينِ المقال. وترى بعض البغايا العجائز تُظهِر وجهَها بالتدهينات والتسويلات والتزيينات كالشبّان، فيحسب الجاهلُ وجهَها الدميمَ كالبدر في اللمعان. فكلّ ما تفعل البغيُّ بالمكيدة، وتُرِي جَلادتَه كالظبية، كذلك يفعل الدجّال ويُظهِر زينةَ التقوى والعفّة. في بطنه يغلي الرحيقُ، والوجهُ كأنه الصِدّيق، ويحجُب طوائفَ الأَنام، بزينةِ تملُّقِ اللسان وإراءة التواضع في الكلام.

فقد وقع هذه وهذا كالمرايا المتقابلة، وفي هذا إشارة أخرى من الحضرة النبوية، وهي أن سيئة إذا كثرتْ وكملتْ وطغتْ وتموّجتْ فهي تُحدِث سيئةً أخرى بالخاصيّة، التي تحاكي الأُولى في ألوان الكَيفيّة. وقد جرّبنا غيرَ مرة أن نساءَ دار إنْ كُنّ بغايا فيكون رجالُها دَيُّوثين دجّالين. وهكذا وُجد تلازُمُهما من الأولين إلى الآخرين، ففكّرْ إن كنتَ من العالمين.

ثم نرجع إلى ذِكر الملوك والأمراء*، فنقول ما بقي على أمراء هذا

* هذا ما رأينا في بعض ملوك الإسلام، وأمراءِ هذه الملّة الذين صاروا كالأنعـــام. قصروا همَمَهم على اللذّات، وتركوا حِمى الخلافة كالفلوات. ما بقي شغلُهم مِن دون الاصطباح، ولا ذريعة راحتهم مِن غير الراح. يشربون الكُمَيتَ الشَموسَ إذا حجَب الشمسَ المَواطِرُ، وتراءى السحبُ وسُرّتْ بشَيْمِها الخواطرُ. وقد فـــسدتْ بلادهم من أنواع الفتن، ونزلتْ على الرعايا ألوان المصائب والمحـــن. المـــسالك شاغرة، والقبائل متشاجرة، ما كان لأحد أن يسافر في بلادهم بالانفراد، فيُنهَب أو يُقتَل ولا يدركه أحد للإمداد. لا يرون هؤلاء إلى نظامِ حكّام الدولة البرِطانية، وحسنِ صفاتهم ورزانة حَصاتهم، وأساليبِ سياستهم وأعاجيب فراستهم. عالجوا كل عليل، وما تركوا مِن داء دخيل. يدركون كلَّ مستغيث ومُعولٍ، ويسعون إلى كل مُعضِل. ويُسَوُّون كلَّ أَوَدٍ بأيديهم، ويرحمون كلّ مظلوم بأياديهم. يبـــدأون بعائدة، ثم ينتفعون بفائدة. يُنفِقون في أمور السياسة كثيرًا من المال، ثم ترجع إليهم أموالهم في المآل. يملِكون بغرسِ عودٍ بستانًا، وباستمالةِ جَنانٍ جنانًا. انظروا كيف أهراقوا المال عند دواهي الطاعون، مع إساءة الظن من الجهلاء وكثرة الظنون، فما كانوا أن يبالوا نفسًا أبيّةً، حتى يكمّلوا رأيًا ورَويّةً. وكذلك أجد طريقَ ســـلطان الروم** بأقاصيه وأدانيه، وأرجو ألا يتخلّف ظنّي فيه، ولا شك أن أذكار خـــيره في العرب سائرة، ومحامده على الألسن دائرة، فندعو له ونظن فيه ظن الخير، فإن بلاده محفوظة من الضير، وهو على خير كما نسمع من الروايات، وما لا نفهـــم من أموره فنؤوّل وإنّما الأعمال بالنيّات، وعليها مدار الجزاء والمكافاة. ونرى أنه تجري على يده حسناتٌ كثيرة وهو خادم الحرمين، ونوّر الله عيناه ببركـــة هـــذه العينين. وللدين وحُماته وظائف مستكثرة في حضرة دولته، فهذا هـــو الـــسبب لإقباله وعظمته وعزّته. بيد أنّا رأينا وشاهدنا أن بعض أركان دولته قوم خـــائنون وما بقي الارتياب، وكل ما جرى عليه من المـــصائب فـــأقوى أســـبابِها هـــذه

الزمان خَتْمٌ ولا حاجة إلى الإزراء. وإنهم انقسموا في زماننا هذا إلى أقسام، وتَنافَوا في فسق وإجرام، فتجد بعضَهم مشغوفين بنساء ومُدام، وبعضهم بألوان طعام، وتشاهد بعضهم مفتونين برنّات المَثاني، ومطّلعين إلى أغاريد الغواني والأغاني، ومستهلكين على صوتِ بَرَهْرَهةٍ من الأداني. ومنهم الذين يستعذبون السفر الذي هو قطعة من العذاب، ليصطبحوا بنساء المغرب وينضّروا بهن نواظرَهم ويستوفوا مَرَحَ الشباب، فتارة يغرّبون وأخرى يشرّقون كالغراب، وينسون ممالكهم لفَرَطِ اللَّهَجِ بالشهوات، وإذا دعتْهم وزراؤهم لفصل بعض المهمّات، فيتعللون بعَسى ولعلَّ لعدم المبالاة، ويعيشون كالسكارى لا طِلْعَ لهم عما شانَ وزانَ، ولا يبالون أمورَ الحلّ والعقد ولا يفارقون النسوانَ، ولا يخرجون من مغارة، وإنْ اغتالهم عدوٌّ على غَرارة. وما أهلكَهم إلا البغايا والغَبوقُ مع التغذّي بقلايا

الأحزابُ. فالحاصل أنا لا نرمي السلطان بلائمة، ولا نذكره إلا بمدح ومحمدة، وندعو أن يهَب الله له أزيدَ مِن هذا عِلْمَ دقائق السلطنة، ويقطع مادّة التغافل من أركانه وينفخ فيهم روح التيقّظ والجلادة، ويهَب له عزمًا وهمّة كما يليق لهذه المرتبة التي هي ظِلُّ الحضرة. وقد جرتْ عادة الله بأن غضبه يحلّ على الغافلين كما يحلّ على المجرمين، ويُسقَون من كأس واحدة من رب العالمين. ولا نريد أن نتكلم أكثر من هذا في هذا السلطان، وقد بلغتْنا أخبار في بعض عمائد دولته فنخفيها تحت ذيل الكتمان. منه

** *يعني السلطان التركي (اللجنة)*

الجدايا. لا يتوجّهون إلى الرعايا وفصل القضايا. وقد كثرت البغايا لشِقْوة الناس في هذا الزمان، ورُفِع رسمُ الحجاب فصِرْنَ وبالاً للشبّان، فأَمَطْنَ من الوجوه لِثامَهنّ، ومن الأفواه لِجامَهن. وترى الناس ينادموهن على الشراب في الأسواق، ويتعاطون كالعشّاق. وربما تسقط بَغِيٌّ مِن كثرة الخمر في وسط السوق وممرِّ الزُّمَر، فيحملها مَن عَشِقَ عليها كالحُمُر، ويمشي حاملا في السوق كالخادمين، والناس ينظرون إليه ضاحكين ولاعنين، وهو لا يبالي لوم اللائمين، فيمرّ بكلّ سِكَّةٍ بهيئةٍ معجِبة وكيفيةٍ مخزية.. العَجوزُ⊙ في البطن، والشابّةُ على المتن.. ويبذل في مُداواة بَغِيٍّ جُهْدَ أَسِيٍّ، وتشغَفه حبًّا فيكون أَسْرَها، وتجذب إليها قواه بأسرها، ويستعذب تعذيبَها لالتهابِ عِذارِها، ويصدّق زُورَها مخافةَ ازورارِها. يقرُب بها وَشْكَ الرَّدى، ولا ينتهج سبلَ الهدى، ويتلاشى الصحّةُ، ويختلّ البِنيةُ، ويترُك عقيلتَه لها، وإن التهبت أحشاؤها بالطَّوى.

ومن علامات القيامة كثرة العاهرات وقلّة الصالحات، وإعلان الفسق والفجور وعدم المبالاة. فلا شك أن هذا الزمانَ زمانُ هذه السيئات، ولا يتّعظ أحد بما نابَ الناسَ من الوباءِ والقحط وغيرهما من الآفات، ولا يتذكرون ما دهَمهم من أنواع المصائب وألوان

⊙ *هي الخمر المعتقة. (اللجنة)*

النوائب، وتجلّت لهم العِبَرُ فلا يعتبرون فهذا من العجائب. يحاربون الله ولا يجنَحون للسلْم، ولا يتخذون سبل الصلاح والتُؤَدة والحلم. والسرّ في صدور هذه المعاصي والخطيّات، أن الناس قد غفلوا عن الله جليل الصفات، ونسوا يوم المكافاة، وكفَرت القلوب بوجود رب الكائنات. ثم اختلفت الذنوب باختلاف الدواعي والأسباب، وحدَث كلّ ذنب بمناسبة المحرِّك والجذّاب، فمَن أُصلِيَ ببليّةِ مجاعةٍ، اضطرّ إلى طَرٍّ وسرقة، ومَن ثقُل حاذُه بعيالٍ ودَينٍ، اضطرّ إلى تخلُّفِ وعدٍ واحتيالٍ ومَينٍ، ومَن أصبى قلبَه حسنُ جارية من الغِيد، اضطرّ إلى خائنة الأعين وتنجيس العين بالتعويد، ونقضِ التوبة والعهد والمواعيد. فكذلك فرّط في جنب الله كلُّ أحدٍ من الفاسقين والفاسقات، بتحريك من التحريكات. ثم إن للصُحبة والمُقاناة تأثيراتٍ، وفي مجالس السوء سموم وآفات، ومَن استحكمَ شرُّه من المخالطات، فلا يُرجى بُرْؤُه إلى يوم الوفاة. ومَن ضعف وهرم في الشر فشرُّه قويّ، وشَيبُه عصيّ، ولا يُصلِح قلبَه أسيٌّ ولا فلسفيّ، ويموت على الخبث ولا ينـــزِع عن الغيّ، ولا يفيء مَنْشَرُه إلى الطَيّ. فإنه وافاه الشيبُ المعكس فما كان له نذيرًا، وولّى العيشُ النضير فما خاف تافهًا نزيرًا، بل زاد ميلانًا إلى أموال الدنيا وعَقارها، وضِياعها ونُضارها، وحدائقِها وثمارها، وسَكَنِها

وسكينتها، وزَهْرِها وزينتها، والموتُ وقَف على رأسه، وقرُب وقتُ نُعاسه، ومع ذلك يودّ أن يكون له كلُّ ما في الأرض من الخزائن والدفائن، والعلوم والفنون، والبلاد والحصون، والبحار والعيون، والأفراس والدواب، والمحامد والألقاب، وتدابير الدنيا وعلم بواطنها، وحِكم الصنائع وأسرارها ومواطنها، وفتوح الغيب، وعلاج الشيب، ونسخة الكيمياء، والعزائم المهلكة للأعداء، والأدوية المطوِّلة للحياة، وأعمال الحُبّ والتسخيرات.

ثم إن بعض العقائد مولِّدة للسيئات، ومؤكِّدة لخبثِ العادات، كما أن مُشركي الهند جوّزوا النَّيْكَ على سبيل الحرام، عند عدم الولد الذَّكَر والطمعِ في هذا المرام، فيرغِّبون نساءَهم في اتخاذ الأخدان، لعلّ ولدًا يحصل به ولو بنُيوكٍ كثيرة إلى برهة من الزمان. ويسمّون هذا العمل نيَوكًا*، وكان بالحريِّ أن يسمّى بَوْكًا. وقد أُكِّدَ في هذا الزمان لهذا العمل القبيح، وحثّوا عليه ورغّبوا فيه بالتصريح، وبما أدخلوا هذه الأباطيل في الاعتقاد، اضطرّوا إلى أن يروّجوها ويرقُبوا مواقعَها رِقْبَةَ أهلّةِ الأعياد.

* اعلمْ أن لفظ النيوك قد أُخذ من النَيْكِ إشارةً إلى كثرة الجماع، فإن النيوك جمعُ النَّيْك، والجمع يدل على الكثرة والاجتماع. منه

وكذلك شاع في بعض المسلمين بعضُ العقائد الفاسدة، ورُوِّجتْ كرواج الأمتعة الكاسدة، فمنها أنهم يقولون إن المهدي يخرج على الناس من المغارة، ويأخذ المنكرين على الغَرارة، والمسيح ينـــزل من السماء، ومعه ملائكة حضرة الكبرياء، ثم يُحيا الشيخانِ والآخرون من الأعداء، فيقتلهما المسيحُ والمهديُّ بأشدّ الإيذاء، ويومئذ يُعطى لكل من كان من الفِرق الإمامية الجناحانِ كجناحَي الصقر بما أكلوا لحم صَحْبِ النبيِّ بالغِيبة، فيطيرون إلى السماء لاستقبال المسيح كالملائكة، ثم يُبَتِّكون أعناقَ كلّ مَن كان من أهل السُنّة، بما كانوا يُكرِمون صحابة خيرِ البريّة، وبما كانوا يعادون الشيعةَ، ولا يدخُلون في هذه الفرقة المعصومة المطهّرة، ويومئذ لا يسلَم مِن أيديهم ولا يبقى حيًّا على ظهر الأرض إلا مَن فضَّل على جميع الناس عليًّا، وحسِبه وصيًّا، ولأمراض الناس أسيًّا، وآمنَ بخلافته الحقة مِن غيرِ فاصلة، ولعَن الصحابةَ كلّهم إلا قليلا الذين كانوا زهاءَ خمسة.

وكذلك انتصب أهل الحديث لإزراء الحنفية والشافعية والمالكية والحنبلية، وجهّل بعضُهم بعضًا، وقاموا للتخطئة.

وقال النصارى إنا نحن على الحق الصريح، ولا تنجو نفسٌ إلا بدم المسيح، وسينـــزل المسيح مع الملائكة المقرّبين، فهناك يأخذ المسيح

كلَّ من كفَر بألوهيته ويذبحه كالقصّابين. ويومئذ لا يخلُص أحدٌ إلا من آمن بالكَفّارة، ومن آمنَ فنجا ولو كان عبدًا للنفس الأمّارة.

وقال الذين أشركوا مِن براهمة هذه الديار، إن الدين ديننا والباقون كلهم وقود النار.

فالحاصل أن الناس يمتحنون عيدانَهم لقَعْضٍ، ويموج بعضهم في بعضٍ، ويصارعون ويتجاذبون ويُرعِلون في كل رفعٍ وخفضٍ، وقد شمّروا عن ذراعَيهم لِهَشٍّ ونَفْضٍ، وتراءى طوفان لم يُرَ مثله من آدم إلى هذا الزمان، وترى الناسَ كمصارعين في ذلك الميدان. وكتبوا رسائل وكتبًا لا تُعَدّ ولا تحصى، وجاءت كقطرات البحر وحَصاة البَرِّ والحصا. وقد اجتمع جميعهم صائلين على الإسلام، وأجمَروا على استئصاله بالجهد التام، ورموا مِن قوس واحد لجرحِ دينِ خير الأنام، فإنه ناوَأَ دينَهم في سائر العقائد والأحكام، وما بقي لديننا حمايةٌ إلا حماية الكريم العلاّم، وضاقت علينا الأرض لتضايُق الأيام. فاقتضت غيرةُ الله أن يحكم بينهم ويُنــــزِل أمره بالحق، ويُرِي آية لالتئام القمر المنشقّ، ويضع الحرب ويؤيّد دينه بالنور، ويجمّر جيشَ آياتِه بالثغور، فإن الأقوام جاءوا جُمارَى، وتراهم من النَّهْمة كسكارى وما هم بسكارى، وصار الدين في أيديهم كأسارى. وإن الله رأى أعداءه أهلَ منعةٍ وشدّة، وتظاهُرٍ وجَمْرة، وجِدَةٍ وثروة،

ومكرٍ وحيلة، وجَلادةٍ وهمّة، وإيجادٍ وصنعة، وتجربةٍ في المِراء ومعرفة، واستقلالٍ وتُؤَدة، وتيقُّظٍ في الحيل وبصيرة، ووجَد المسلمين غافلين ووجد فيهم رِخوةً وضعفًا وقلّةَ المعلومات، والانهماكَ في الدنيا وعدمَ المبالاة، وقصورَ الهِمم واختلال النيّات، ورأى الدينَ منفردًا كالغرباء، فأَعَدَّ ما يمكِّنه من العلوم والآيات في السماء، كما أُعِدّت الحِيَل والمكائد في الغبراء مخلوطةً بالأهواء، وبعَث رجلا من عنده، واصطفاه من عرشه، ونفخ فيه من روحه، ترحّمًا على الضعفاء. أتعجَبون ولا تشكرون، وإلى هيئة الزمان لا تنظرون، وفي قول الله ورسوله لا تفكّرون، وتضحكون ولا تخافون، وترون آيات الله ثم تمرّون كأنكم لا تؤانسون؟ أما خُسِف القمر والشمس وجُمِعا في رمضان؟ أما مضت على رأس المائة مدّةٌ قريبا من خُمْسِها وصدَق رسول الله وما مانَ؟ فأَرُوني مجدِّدًا مِن دوني إنْ كان. أتكذّبون قولَ الله ورسوله ولا تصدّقون البيان، ولا تخافون المقتدر الديّان؟

أيها الأعزة.. إن الزمان قد فسد مِن كل جهة وجنب، وأحاط الناسَ كلُّ نوعِ جرمٍ وذنب. قد كثرت البدعات والرذائل، وقلّت الأخلاق الفاضلة والشمائل، وصار صدقُ الحديث كالكبريت الأحمر، والإخلاصُ في التذكير أَشَقَّ السِيَرِ، وتعوّدَ الناس تتبُّعَ العثرات

وكتمانَ المكارم والحسنات، وكفرانَ الصنيعة وإدحاض المودّات، وعقوقَ الوالدين والوالدات، ومالَ الخواطرُ إلى المَصافّ من المصافاة، وفسخوا عهود المحبة والمؤاخاة، واختاروا ما يباين الورعَ وسِيَرَ التقاة. يتمايلون على النساء مِكْلافين، ولا يحبّون الله أحسنَ المحبوبين. كلِفوا بجَوارٍ زانيات، وأُولعوا بأغاني ومغنّيات، وترى المساجد خالية من ذاكرين وذاكرات. وطلبوا في وجوه الغلمان لذّةً وسرورًا، وتركوا ربّنا مهجورًا. يتكلّفون الكُلَفَ للدنيا الدنيّة وأمورِ الرياء، ويُسنِّي لهم بذلُ الأموال قَصْدَ الأهواء. وتجد كثيرا منهم ضاقت صدورهم وكثر كبرهم وغرورهم. يضربون نساءهم وحَفَدتَهم على أدنى ذنب من التمليح والإمراخ، وكادوا أن يشدِّخوهم على أن لم يأتوا عند الطعام بالنُقاخ، وربما يلطمونهم على أن المَباءة ما كُسحتْ، أو الزرابيَّ ما بُثِّثتْ، أو النمارقَ ما صُفِّفتْ، ويكلَحون ويعبِسون ويصلُقون، ويصرخون كأنهم يموتون، ويرفعون الأصوات ومن الغضب يرتعدون. ويدُعّون المساكين وكالكلاب يُخسئون، وإذا اضطرّوا إليهم لغرض فيخلُبون ولا يُخلِصون. وإنْ بَطُؤَ خادم في مجيئه فيضربون حتى يقرُب الحَينَ، ويعاقبون بأنّى وأينَ. ويأكلون الخدّامَ إن لم يُحضِروا الطعام على أوقاته، ويمتحنون اللحم ويُجنِّبون على إيهاتِه. ويُبذِئون خادمًا عاقلا إنْ كان لا يتعوّد الظلم

والجورَ، ويبسَأون بظالم وإن كان يشابه الثورَ. يظلمون أرامل وإن كنّ قريبًا منهم ومن جيرانهم، أو قريبةً من بنات إخوانهم. وإن كان لأحد منهم أخٌ أو أخانِ جائعَين، فلا يُلقِمهما لقمةً كالإخوان، وإنْ يَرَ أنهما قريب من الموت ولدَغهما الجوع كالثعبان. وإنْ جاءت عاهرة فيبتدر فَتْحَ الباب، ويتلقّاها بالتَرحاب، وما كان لجار أن يحلّ ذَراه ويتلمّظ بقِراه، وإن قطّعه الجوع بمُداه. يتجشّم لأجل الأكابر أُكُلاً، ويُهيّئ لهم كلَّ ما يؤكل ولا يراهم على نفسه كَلاًّ، بل يجمع لهم من جميع الألوان مآكلَ، وإن هاضت الآكلَ. ويسوم التكليفَ في سبل الرياء، ولا يعطي السائلَ ما حضر من العَشاء. ولا ينظر بخُلقٍ سَبْطٍ إلى ذي مجاعة، ويسبّ السائلَ ويضرب إنْ وقف إلى ساعة، ولا يرى أن السائل جاءه في ليل دَجى، وقصَده على ما به من الوَجى، وظنَّه مضيفًا يعطي رغيفًا، ويخاف ربًّا لطيفًا، فيدُعّه مِن بيته ولا يرحمه مع علمه على عدمِ مَوئلٍ، وإنْ كان ما ذاقَ مُذْ يومين طَعْمَ مأكلٍ، وما يفكّر في أن الغريب أين يذهب في ظلام مُسبِلٍ، وما يفعل عند تألّمٍ وتملمُلٍ.

فالحاصل أن المواساة قد قلّتْ، ومصائب الضعفاء جلّتْ، ونسي المودّةَ وصِلةَ الرحم كلٌّ مَن كان في المشارق والمغارب، وصارت الأقارب كالعقارب، ولأجل ذلك يترك مَن ساقه السَغَبُ الأهلَ

والدارَ، ويذهب أين يُذهبِه الفقرُ ويدور كيف أدارَ، ويفصل عن القُربى بكبد مرضوضة، ودموعٍ مفضوضة، حتى لا يُعرَف أحَيٌّ فيُتَوقَّعَ، أم أُودِعَ اللحدَ البَلْقَعَ، ويصرخ في الغربة قائلا: أين أنت يا زوجي يا ولدي، وإنّي أهلكَني الهَجْر ولكن كيف أصِل إليكم بصفر يدي؟ ويقول يا أَسَفَى على وطني ويضجر قلبه وهو يُخرِد، ولا يكون له أحد أن يرقُش حكايتَه على ما يسرُد، ثم يسعى بخبره إلى وطنه كما يسعى الأجرَد، ولا يستبطنه أحد عن مُرْتاه، ولا يُعِينه في استضمام زوجه وفتاه، ولا يُعطى له نصابٌ من المال، ليكفل زوجه وابنه في الحال. وقد تكون له بنت جاوزت الإعصارَ، وهي كعانسٍ في بيته وكادت أن لا تجانس الأبكارَ، فيكون هذا الرجل صيدًا لهذه الأفكار، ويموت قبل وقت الاحتضار، ويُمِرُّ في حلقه ماءٌ عذب ويتقضّى عليه عذاب، فيمشي مبهوتا كأنه مصاب، ويستدين فلا يُعطُون من المال قسطًا، وإنْ يكتُب لهم به قِطًّا، ويستَقْري الحيلَ ولا يجد أقواتًا، كأنه ورَد أرضًا قاطًّا، ولا يرى مِن حزبٍ الصُنْعَ وإنْ يستنفد في ثنائهم الوُسعَ، ولا يشاهد الطَوْل، ولو أطال القول، ولا يجد منهم دواء الطَوَى، وإنْ نشَر مِن وَشْيِ سَمْرِه أو طَوَى. وكذلك يمتدّ ليله المُبير، ولا يجشُر الصبح المنير، وتبسُط عليه ليلُه جناحًا لا تغيب شوائبها، ولا تشيب ذوائبها. هذا حاله وأخوه المترَف يطمُر

طمورَ الغزالة، وينوم إلى طلوع الغَزالة. لا تُرفَع يده للصِّلات، ولا يجنَح صُلبُه للصَّلاة. يسعى كالبابورة في غُلَوائه، ويستُر جهلاتِه بثوب خيلائه. لا يعلم كيف تستطير صدوعُ الكبد، عند غلبة الحنين إلى الوطن والولد. يُحرِز العينَ في صُرّته، وبها يبرق أساريرُ مسرّته. وكذلك يُسنَّى ابتلاءً نجاحُه ويُبسَط جناحُه، فيُعمَّى عليه طريقُ الاهتداء، ويجرّه شِقوتُه إلى العَماية والعَمياء، ويظن أن دولته مِن علمه ودهائه، لا مِن قَسّامِ آلائه ونعمائه، ويمدح عقلَه ويقول إني به حُزتُ ما اشتهيتُ، وما حوى إخواني ما حويتُ، وإني ما آمنتُ بالرسل وتعافيتُ، فلِم ما عُذّبتُ إنْ أجرمتُ أو جنيت.

ومن الجرائم التي كثرت في المسلمين كبرٌ ونخوة كالشياطين، فمَن كان يحسب نفسه من العلماء يُرِي مزايا علمه بأنواع الخيلاء، ويذكر الآخرين كالمحقَّرين المزدرين، ويتوغّر غضبًا إذا قيل إنهم من العالِمين، ويشمَخ بأنفه أَنَفًا عند ذكر الغير، ويقول دَعُوا ذِكره فإنه كالحمار أو العَير، ثم يحمد نفسه صَلَفًا كالمستكبرين، ليعتلق به الناس اعتلاقَ العاشقين، ويتقلّب في أقاليب، ويخبِط في أساليب، فيدّعي تارة أنه من الأدباء، ولا يبلغ شأنَه أحدٌ من البلغاء، ويسأل الأقرانَ كالصبيان عن التراكيب النحوية والصيغة، ويقطع على الناس كلامهم للتخطئة، ويبدي ناجذيه على لفظ كالكلاب، ويزعم نفسه

على الصحة والصواب. وكذلك يزعم هذا الرجل مرة أنه من الأطبّاء، وفاق الكلَّ في تشخيص الداء وتجويز الدواء، ويبرُز طورًا في زَيِّ الفقهاء، ويشير حينًا إلى أنه ظفِر بنسخة الكيمياء. ثم إذا فُتن في موطنِ فرسانِ اليَراعة وأرباب البراعة، فثبت أنه لا يقدر على أن ينقّح الإنشاءَ، ويتصرّف فيه كيف شاء، بل يظهَر أنه أعجَمُ ويضاهي العَجماءَ، ولا يعلم ما الأدب ولا يدري هذه الطريقةَ الغرّاءَ، ثم إذا عُرِض عليه المرضى للمداواة، كما ادّعى في بعض الأوقات، فما كان أن يفرّق بين السَكْتة والسُبات، وربما يحسب الدِقَّ لَثِقةً، وانطباقَ المَرِيءِ ذُبْحةً، ويسمّي السَبَلَ سُلاقًا، وضِيقَ النفَسِ خُناقًا، ويستعمل في مواضع التسخين كلَّ ما هو مُطفِئٌ للحرارة، ومبرِّدٌ للمَعِدة، ويأمر بأن يؤتى المريضُ كثيرًا من الخَسِّ والكافور والكزبرة، ويحسب له كَشْكَ الشعير أجودَ الأغذية، ويأمر أن يتجنّب اللحمَ والأبازير الحارّة، ولا يقرُب شيئًا من الأشياء المسخِّنة، فيكون آخرُ أمر العليل، أن الأورام الباردة تحدث في بدنه من الرأس إلى الإحليل، وفي بعض الطبائع تزيد النفخُ أو يهلك المريضُ من شدة السعال، أو تسكُن حركةُ القلب فيموت السقيم في الحال. فبمثل تلك الأطبّاء يكثُر القبورُ ويقلّ رونقُ العمارات، ومَن أطال المكثَ تحت علاجهم فلا بدّ من الممات. وكم من أعين

فَقَؤُوها، وكم من أرجل أعرجوها، وكم من صبيان بُدِئوا فدفنوهم بخطئهم، ونجَوا مِن أيديهم بفَنائهم. يَشْمَؤُهم المرضَى وإنْ يُجبِئوا الزرعَ، ويشربون لبن كلّ لَبونٍ مِن غنمهم وبقرهم حتى تُبْكَأَ الدَرُّ وتُخْلى الضَرْعُ. ثم يأتيهم الموت بالحسرات، ويلعنوهم عند فراق الأبناء والبنات.

وقد يدّعي هؤلاء الكذّابون بأنهم يجعلون العاقرَ ضانِئًا، والكادِئَ ناميًا زانِئًا، ويؤتون الناسَ بناتٍ وبنين، وإنْ زَنَأُوا الثمانين، ويرى الصبيُّ بدوائهم إخوةً بعدما كان عِجْزةً. وكذلك يقولون إنا نكفَؤ المرضَ من اعتدائه، ونجعل العليل كنخيل بعد انحنائه. ومن أراد أن يمرَأه الطعامُ ويتقوّى العظام، فليأكلْ معجونَنا الكبيرَ، وسينظر في أسبوعٍ التأثيرَ. وإذا استعمل الناس دواءَه وما رأوا إلا النقصان، فعلموا أن الرجل قد مانَ، وأَتبَعوه اللِّعانَ.

وكذلك يكذبون ولا يحسبونه سُبّةً، وبالدجل يجعلون الكذب قُبّةً. وكذلك إذا ادّعى أحد منهم أنه فقيه ومن المحدِّثين، فثبت في آخر الأمر أنه جاهل ولا يعلم الدين. ولا يخفى عالم وجهول، ولا صحيح ومسلول. وإني في هذه صاحبُ التجربة، وانتقدتُهم فوجدتُهم كالمَيتة. إنهم تفرّدوا في الدَّقارير، وأغَدُّوا كالبعير. يأكلون حتى ينقلب عليهم المعدةُ وينفُضوا على الفراش، وبعُدوا عن الحق

وطلبه فليسوا اليومَ كالشمع ولا كالفَراش. تركوا الملّة وما قاله النبيُّ الصبيحُ، وسقطوا كأَذِبّةٍ تسقط على جرحٍ يقيحُ، وإذا غاب عنهم قَذَرُهم فضاقوا لها ذَرْعًا، وما ملكوا صبرًا ولا ورَعًا.

والله إنهم قد أطاعوا النفس وسلطانَها، وتعوّدوا الشهواتِ وشيطانَها. يدورون على أبواب أهل الثروةِ واليسار، والجِدَةِ والعَقار. وكم منهم مالوا من صلاة الصبح إلى الصَبوح، ومن العِشاء إلى الغَبوق في الصُروح، واشتغلوا مِن شرح "الوقاية" و"الهداية"⊙، إلى العواهر والبغايا، وإلى الرحيق مع التغذي بالقلايا من الجدايا، ومالوا إلى السماع من المحسِنات الحُذّاق، والموصوفات في الآفاق؛ وإذا قلّ البَعاعُ، وخفّ المتاعُ، وفرّ الرَّعاعُ، وفرَغ الجِرابُ، وغُلِّق الأبوابُ، نهضوا للوعظ والنصيحة، مع حِبالة مِن أشعار الصوفية، لتعود إليهم أيامُ الثروة والجِدَة. وتراهم في مجالس الوعظ يتصرّخون

⊙ كان في ديارنا رجل من الواعظين، وكان الناس يحسبونه من الصالحين الموحّدين، فاتّفق أن رجلا دخل عليه مفاجئًا كالزائرين، فوجده يشرب الخمر مع ندماء من الفاسقين، فقال: يا لعين، عَملُك هذا، وقولك ذلك؟ فأجاب وأرى العُجابَ، قال: أَرُوني عالمًا لا يشرب الخمر، أو يتجنّب الزنى والزَّمْرَ. وكذلك كان عالـــمٌ آخر قريبا من قريتي، وكان ينكر برُتْبتي، فشرب الخمر في مجلسِ كافرٍ يهوى الإسلام، فلعَنه الكافر ولامَ، وقال إنْ كان هؤلاء هم أئمّة الإسلام، فكُفْرِي خير لدنياي مِن أن أَلحَقَ بهذه اللئام. منه

ويُرغُون كبعير أَغَدَّ، وفي القلب يذكرون الجَدَّ، والدموعُ قرَّحتِ الخدَّ. فالعامة يزعمون أنهم يبكون مخافة يوم المكافاة، كما هو مِن سِيَرِ أهل التقاة، مع أنهم لا يبكون إلا بفراق الصهباء، والغِيدِ من الندماء، وبما قَلَّ المِراحُ، وكانت كالرؤيا الراحُ، فهيّج لهم البكاءَ ما عندهم من الوحشة لفقدِ أسباب العيشة، وبما فقدوا رُفْقةَ أيام الرَخاء، ونُدماءَ حلقةِ الصهباء. ومع ذلك يحسبون أنفسهم كالبدر، ويحبّون أن يُقعَدوا من المجلس في الصدر، ويسمّون أنفسهم مولويّين، أو فقهاء ومحدِّثين، ومَن لم ينادِهم بهذه الأسماء فيغضبون عليه سابّين، مع أنه لم يبق لهم طبع عربي، ولا ذوق أدبي. وإني دعوتهم مرارًا، وجرّبتهم أطوارًا، وعرضتُ عليهم كلامي، وأريتُهم غُرَري وحُسْنَ نظامي، وقلت هذه آية صدقي وحجّتي وحُسامي، فأْتوا مِن مثله إن كنتم تنكرون بمقامي، ففرّوا فرارَ الحَيَواتِ مِن أسلحة الكُماة. وتعوّدوا كالنساء اكتحالَ العين، والطيبَ والمُشْطَ والحِيَلَ لجمع العَين. وبعضهم يرغبون في الضَّفْر والإجمار كالنسوة، ويُدَهّنون خُصْلتهم ويعطفون كلَّ وقت شعورَ الجَميرة، ويفرّون فرارَ الآبق من مجالس العلم، ومع ذلك لا ترى فيهم أثرا من الحلم. وإذا دخل مسجدَهم أحدٌ من الغرباء، وكان يخضب أشعاره مثلاً ويسوِّدها بشيء من الأشياء، فصالوا عليه كالكلاب، أو ككُفّارِ غَزاةِ

الأحزاب، وناشُوه كالسباع، اللهم إلا أن يُهْدِ إليهم شيئا من المتاع، أو يَمُدَّ الباعَ بحذاء الباع. إنهم قوم يأكلون الضعفاء باللسان، ويفرّون من الأقوياء كالجبان، وإذا اجْرَمَزَّ أحدٌ لِيَباعَ، وأرى الكنائنَ والسهامَ والباعَ، فنفَروا ولا كنفور الحُمر، وغلَب مَن صِيلَ عليه على الزُّمَر.

فحاصل البيان أنهم يُهرَعون إلى الغرباء كالطوفان، ولا يهتالُ صِلُّهم إلا بمشاهدة الثعبان، ولا يُدارَون إلا برغيف أو صفيف. يعظّمون العِظامَ الرُفاتَ، ويكفُرون بالذي بُعِثَ وأحيا الأمواتَ. ألا يعلمون أن الوقت وقت نصرِ الدين ودفعِ اللئام، وقد دنَفتْ شمسُ الإسلام؟ بل عادَوا الحقّ لِحُبِّ الأقارب واللذّات، وآثروا هذه الدنيا وما انعقدت من المودّات. يبْغون عَرَضَ هذه الدنيا وخطارها، ويحبّون أن ينالوا خُشارتَها. فالأسف كل الأسف أنهم بقُوا بعد موت الأكابر كالجِلْف، ولا خَلَفَ بعد السَلف. يدّعون أنهم فاقوا الكل في الفقه والحديث والأدب، ونسلوا مِن كل أنواع الحَدَب، وليس لهم خبرٌ من حقائق الدين، ولا نظرٌ في حدائق الشرع المتين، وما أُعطيَ لهم قدرةٌ على أن يكتبوا عبارةً غرّاء، ولا قوّةٌ ليفترعوا رسالةً عذراءَ، وما أجد أحدا منهم يعارضني في الإملاء، ويبارزني في تنقيح الإنشاء. وقد قلتُ لهم مرارًا إنني أنا المُفْلِق الوحيد من كُتّاب هذه

الأوان، والمنفرد بعلمِ معارف القرآن، ولي غلبة على الأواخر والأوائل، ولو جاءني سَحْبانُ وائل كالسائل⊙، فإذا طلبتُ منهم

⊙ كلّ ما قلتُ من كمال بلاغتي في البيان، فهو بعد كتاب الله القرآن، وإنه معجزة جليل الشأن عظيم اللمعان قويّ البرهان. وإنه فاق الكلَّ ببيان لطيف ومعنى شريف، والتزامِ البُروقينِ في جميع مواضعه كبرقٍ وَلِيفٍ. شاجرَ الناسُ فيه فما أرَوا كمثله مِن شجرة. له حلاوة وعليه طلاوة، ولا يبلُغ وَهْفَه نبتٌ ولو كمُل في اهتزاز وخضرة. والذي يطلب لمعانَه مِن كلام غيره من الكائنات، فليس هو إلا كرجل يريد أن يَلفُوَ اللحمَ من العظام المقبورة الرُفاتِ. فالحق والحق أقول إنه لا يوجد كتاب بين الدفّتَين كمثل كتاب ربّنا ربّ الكونَين، فكما أن الكمال مِن كل جهة مخصوص بحضرة الكبرياء، فكذلك الحسنُ مِن جميع الأنحاء مختص بهذه الصحف الغرّاء، وأمّا الذي هو دونه فهو لا يخلو من عيب ونقصان، وإن كان كلام النابغة أو سَحْبان. فإنْ وجدتَ مثلا فقرةً من كلمات أحدٍ منهم كخدٍّ أبرقَ وأملسَ، فتجد فقرة أخرى كأنف أصغر وأفطسَ. وإنْ وجدتَ لفظًا كعينٍ حَوراء، فتجد آخر كناقة عَشْواء. وإنْ وجدت مثلا قافيتَين متوازيتَين كعجيزتَي النساء، فتجد رديفًا كأَلْيةٍ اختلَّ تركيبها وتحرّكتْ وما بقيتْ على الاستواء. وإن القرآن يشابه الوجوهَ الحِسان، لا تجد ثناياه إلا مزيَّنةً بالشنَب، ولا خدودَه إلا مصْبِيةً باللَهَب، ولا بنانَه إلا لامعةً من التَرَف، ولا خَصْرَه إلا منطَّقةً بالهَيَف، ولا حواجبَه إلا بالجةً بالبَلَج، ولا مَباسمَه إلا زاهرةً بالفَلَج، ولا جفونَه إلا مسكِرةً بالسَقَم، ولا أنفَه إلا معتبِدًا بالشِمَم، ولا جبهَه إلا آسرةً بالطُرَر، ولا عينَه إلا معبَّدةً بالحَوَر. فهذه عشرة آراب، يوجد حُسنها في القرآن من غير ارتياب. منه

مبارِزًا في هذا الميدان، فما بارَزني أحد واختفوا كالنسوان، وما كان لهم أن يُظهِروا من شَوْطهم، أو ينثُروا عَجْوةً أو نَجْوةً مِن نَوطهم.
فحاصل الكلام أنهم صاروا في الشر للشيطان كَفَيْءٍ، وليسوا من الخير في شيء. لا يعلمون مِن دون الجهلات، ويشابهون السباع في العادات، وقد أضاعوا مادّة المواساة والمقاناة، كأنهم استوطنوا الفلوات. وإذا رأوا أحدًا صدر منه قليل من الجهالة، فقَلَّ أن يُسعِفوا بالإقالة، بل يشتمونه على ذلك العِثار، أو يُدخِلونه في الكُفّار. وكما أن الفلاحين يقاتلون على قُرًى وجفانٍ، يحارب هذه العلماءُ على قِرًى وجِفانٍ. يتركون الحُبّ للحَبّ، ويؤْثرون الرُّبّ على الرَبّ. يتنازعون على الأموات، ويأخذون أثواب الميّت مِن خبث النيّات. وكل منهم يُري اللسانَ حريفَه كالعَضب، ويبدي ناجذَيه ويحرق نابَه من الغضب، ومع ذلك قد حُورِفَ كسبُهم ولا يفارقهم قُطوب الخُطوب وحروب الكروب، ويلازمهم في جميع عمرهم صِفْرُ الراحة وفراغُ الساحة. وكما أن الفلاح يتوغّر غضبًا على نَبْشِ بَرِّيٍّ من الريف، ويأخذ النابشَ ويكسر بعضَ الغضاريف، فكذلك إنْ لم يحسبهم أحدٌ بريئينَ مِن جريمة فعلوها عدوانًا، ويشهد عليهم إيمانًا، ويخالفهم بيانًا، فيضربونه ويسقُطون عليه زُرافاتٍ ووُحدانًا، وإنْ غُلبوا عند هذه المحاربات، فيندُبون شياطينَهم في النائبات، وقد عُلّموا

أن يجزوا من الظلم غفرانًا، ومن الإساءة إحسانًا. فإنهم قوم أُمروا بإراءة نموذج الأخلاق، فما أَرَوا إلا سِيَرَ الشرور والشقاق. فهم الذين سعوا لإيذائي وجاوزوا حدَّ الإهطاع، فليت لي بهم أعداء من السباع. يأكلون لحم الغائب ولا يبارزون للمباراة، كأنهم ظِباء يخافون حَدَّ الظُباة.

يا حسرة على هذا الزمان! إن الأمراء رغبوا في الخمر والزَمْر والنساء والقَمْر، والعلماءَ إلى الكذب والسَمْر، وتركوا الحكمة اليمانية ورضوا بالنواة من التمر، وما بقي فيهم مِن دون الكبر والشمر، والوثب والطَمْر. يبغون صِرْمةً من الجِمال، وعُرْمةً من الحنطة والأرز والحمّص وفراغَ البال، وما بقي لهم رغبة في إعلاء الدين ونبشِ حشائش الضلال. أُدهقتْ كؤوسُ رؤوسهم من الكبر إلى أصبارها وأصمارها، وتَقاسموا على حفظِ وداد الدنيا وتخيُّرِها واستئثارِها. وحسبوني مِن عِدا الله كأنهم اطّلعوا على ذات صدري، أو علموا ما خامرَ سِرّي. ورأيتُ منهم ما عرّفني جَهْدَ البلاء، وجرّوني إلى الحكّام وعكفوا بي على الاصطلاء، فما شتوتُ ولا أَصَفتُ إلا وبقِدِّهم رسَفتُ. سلّطوا عليّ كلَّ بِلْغٍ مِلْغٍ للتوهين، ليَندَغوني وينــزِغوا في قومي كالشيطان اللعين، ثم مع ذلك لا يعتذرون مما فعلوا، ولا يُظهِرون الندم على ما صنعوا، بل زادوا غيًّا وتصدَّوا

للمجالحة، وأعرضوا عن السلم والمصالحة، وحقّروني وازدرَوني وقالوا جاهل لا يعلم العربية، بل أُمِّيٌّ لا يعرف الصيغة. ثم إذا جَلَّحْنا عليهم ففرّوا كفرار الحُمُر من الضِرغام، أو الجبانِ من السهام، ورأوا مني ما يرى صبيٌّ عند حلول الأهوال، أو عصفورٌ من عُقاب إذا انقضّت عليه من قُنَنِ الجبال. وكانوا حسبوني كشاةٍ جَلْحاءَ، فمَسَّهم منّا ناطحٌ فقالوا بقرةٌ قرناءُ. ومَن جاءني منهم متسلّحًا، جعلتُه مجلَّحًا، بما أغرَوا كلابَهم على لحم البَراءِ، وأوتغوا الدينَ بالافتراء، فكان جزاؤهم أن يُفشَغوا ويُنسَغوا، أو يُطعَنوا ويُندَغوا. ويريدون أن يخوّفوني وكيف مخافتي، وإنْ هم إلا عُوافتي. يفسّقون الناسَ وأنفسَهم ينسون، ويكذّبون الصادقين ولا يخافون. لا يقومون في المضمار، ويُعِدّون لأنفسهم سبعين منفذًا كالفأر للفرار.

وكانوا أشهدوا اللهَ على كفّ اللسان وعاهدوه، فما أسرعَ ما نسوه. وإن الكبر قد سرى في عروقهم وعظامهم وملأ الشرايين، فما كان لهم أن يمتنعوا ولو حلفوا مغلِّظين. وإنهم جمَّروا بُعوثَهم لحرب أهل السماء، وأغلظوا لنا وتصدَّوا للاستهزاء، وتجاهلوا بعد العلم وتعامَوا بعد البصيرة، فكأنهم قُذفوا مِن حالقٍ أو ماتوا جائعين مع وجود الثمار الكثيرة. فلأجل ذلك سمّاهم رَعاعًا وسَقْطًا خاتَمُ الأنبياء، بل قال لا يوجد مثلهم شرًّا تحت بناء السماء. إنهم قوم

اختاروا الذنوب من جميع الجهات، وما ترى فاسقًا إلا يوجد فيهم نموذجُه بل يوجد فيهم صفاتُ السباع والعجماوات. يؤْثرون البُرَّ على البِرِّ، ويتركون حُبَّ الله لَحَبٍّ أو حليب كالهِرِّ. ترى فيهم في مواضع الغضب آثارَ الجنون، ويموتون للأماني بأشتات المنون. يمضي ليلهم ونهارهم في الغيبة والسب والشتم والإثاوة، ومُلئت صدورهم من الغِلّ والحقد والعداوة. وتجد ألسنَهم كرماحٍ أُشرعتْ، أو سيوف شُهّرتْ، أو سهام قُوّمتْ، أو مُدًى حُدّدتْ، أو آفةٍ من السماء نزلتْ. يسجدون أمام الأمراء، ويأكلون قِحْفَ الفقراء. وإذا ذُكر عندهم أن فلانا يؤتي العلماءَ، ويملأ كِيسَ مَن جاء، وأنه من أغنياء القوم وكرام الناس، فسعوا إليه بالعين والرأس، وقالوا يا سيّدنا أنت خيرُ مَن بُرِئَ وذُرِئَ فتَصدّقْ علينا واغسِلْنا من الأدناس. وأما فقراء القوم فيشربون دماءَهم ويلعنون آباءهم. وإذا اقتدر أحدٌ منهم فآذى الجارَ وجارَ، وما رحم وما أجارَ، بل إذا أفرصَتْه الفرصةُ فجرّعه من الحميم، ولو كان أحدٌ كالولي الحميم، وما امتنعَ من التخليط ولو بالخليط، وأخرج لِهوى النفس في كل أمرٍ طريقًا، ولا غادرَ شفيقًا ولا شقيقًا. ومَن أحسنَ إليه بأنواع الآلاء، وسقاه كأسَ الأيادي والنعماء، فما كافأَ بالعشير، ولو كان زوجًا أو من العشير، وما أحسنَ إلى أحد بدلو من الماء، بل استقلَّ جزيلَ الآخرين من الخيلاء

والاستعلاء. وإذا رأى جميلا من الزميل، أو وجد نَزَلاً من النــــزيل، فما شكر له كما هو سيرة الصلحاء، بل أخذ عابسًا وذهب مُعرِضًا كالسفهاء. وإذا جاءه ضيفٌ، شتاءً كان أو صيفًا، فما أكرمَه بالخدمة وتواضُع الجَنان ولينِ اللسان، وما استفسرَ أين بات وما أكل بل ضاق ذرعًا وصار كالشيطان. وإذا صار مِن أغنياء فيخيّب الناسَ مِن معارف، ولو كانوا من معارف. هذه حالاتهم، وكاد أن تنعدم جهلاتهم.

وإنّي أنا موتُ الزُّور، وحِرْزُ المذعور، وأنا حَربةُ المولى الرحمن، وحُجّة الله الديّان، وأنا النهار والشمس والسبيل، وفي نفسي تحققّتِ الأقاويل، وبي أُبطلتِ الأباطيل، وأنا الواصف والموصوف، وأنا ساقُ الله المكشوف، وأنا قَدَمُ الرسول التي تُحشَر عليها الأموات، وتُمحَى بها الضلالات. كَهَرَ الضُّحى، فَلْيَرَ مَن يرى. وإن الله معنا وظلُّه ظليل، وكلُّ رداء نرتديه جميل. وإنا موفَّقون تُواتينا الأقلام، كأنها السهام. ومَن عارضَنا فهو ذليل، وليس له على دعواه دليل. ولن يُزدهى عَرَضُنا فإنه من نور العرفان، ولا يُداس عِرضنا فإنه من عِرض الله وظِلُّ عزّةِ ربِّنا المستعان.

رُويدَ بني قومي بعضَ الشحناء، فإنكم لا تستطيعون أن تحاربوا حضرة الكبرياء. وقد بلَجتْ آياتي وظهرتْ علاماتي. وإن الله أرغمَ

المَعاطِسَ بآي السماء، واقتاد الشوامِسَ بسَوْطِ بُروقِ اليد البيضاء. وترون خيلَنا شُلْنَ على العِدا كالبازي على العصفور، أو الصقرِ على الغراب المذعور، فركنوا إلى الإحجام، وكفّوا ألسنَهم من استخفافِ خير الأنام. فسِرْ في الأرض هل ترى من قسيسٍ يطلب الآياتِ، أو ينكر قائمًا في الميدان بإعجاز نبيّنا خيرِ الكائنات؟ كلا.. بل مات المنكرون، وقُبر المكذّبون. وقد أرى الله آياتِه قريبًا من مائة أو تزيد، وأُعطيَ المسلمون لفتحِ حصون الكفر المقاليدَ. اليوم يئِس الذين كانوا يصُولون على الإسلام، وأذاب لحمهم حربةُ الله فصار عظامهم كالعظام. وكان للقسوس من المال ما يُبطِرهم، ومن الاحتيال ما يحرّضهم، والقوم أحضروا لهم ما في يدهم، وقدّموا لهم ما في بلدهم، وكان المسلمون قد عجِزوا عن الاعتراضات الفلسفية، والشبهات الطبعية، ووِشايةِ علماء المسيحية، ورَغْبتِهم في تلويث ذيلِ العصمة النبوية، وتتبُّعِ عثراتِ رسولِ الله وكسرِ شأنِ الصحف الرحمانية، وكان كلُّ ذلك كسيلٍ جرّاف أهلكَ كثيرا من الناس، وضنَأتْ كلُّ نفس من أنواع الوسواس، وارتاعت القلوب، واشتدت الكروب، ودارَ الشيطان حول إيمان المسلمين، وأراد أن يُخرِج من صدورهم نورَ المؤمنين، وقصَدهم بفضّته وفضيضه، وسُمْرِه وبيضِه، وآجله وعاجله، وفارسه وراجله، وصارمه وذابله، ورامحه ونابله،

واشتدّ زحفُه عليهم، وكلُّ كَمِيٍّ نهَض إليهم، وكاد أن يُناشوا ويُمضَغوا تحت أسنانهم، ويُمزَّقوا بسِنانهم، وكانوا في ذلك متردّدين مبهوتين، وعلى شفا حفرة قائمين مرتاعين، فإذا نظَر إليهم حضرةُ العزّة، وتداركَهم يدُ الرحمة، وبُدّلت الأرض غيرَ الأرض، وجُعل سافِلُها عاليَها، وحَفَدتُها مَوالِيَها، وبطُل كلُّ ما أرجفت الألسنةُ، وذُبحتْ طيرُ الكَفَرة، وقُصّت الأجنحةُ، وأتممْنا عليهم حجّةً بعد حجّة، وبكّتْناهم دفعةً بعد دفعة، حتى صار لنا المضمار، وما بقي للعِدا إلا الفرار.